# بلاغة التصوير القرآني

# للإيناس

# في

# غزوة أحد

بقلم الدكتور

سحر مصطفى ابراهيم المعنا

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة

جامعة الأزهر

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين الذى جعل القرآن ربيعاً للقلوب ونوراً للعيون وخلق الإنسان من سلالة من طين ثم سوَّاه بشراً فتبارك الله أحسن الخالقين ، وفضَّله على سائر مخلوقاته بأحسن نعمه وآلائه ، فأتاه الحكمة وعلَّمه البيان والصلاة والسلام على أشرف المرسلين النبى الهادى الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

## أما بعد :

فإن لغة القرآن وما تشمله من جمل ، وكلمات ، وألفاظ وحروف معجزة ، وقد تحير فيها كثير ممن كانوا يتمتعون بالفصاحة والبلاغة وسحر البيان ، وكانت الآية الواحدة من القرآن الكريم يعجز أمام تفسيرها فحول البلاغة ، بل كانت تشل عقولهم أمام إعجازها، ولم لا ؟ وقد أعجز الله تعالى به العرب أرباب الفصاحة والبيان "البلغاء " ، فلم يستطيعوا مجتمعين أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، يقول ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾(١)

---

١ – سورة الإسراء رقم ٨٨

من أجل ذلك نشأ علم هو من أجل العلوم وأعظمها قدرا ، وأدقها سرا ويه يتفاضل الأدباء ، ويزهو به أهل الفصاحة والبيان ، ألا وهو علم (البلاغة العربية).

وهذا العلم نشأ خدمة للقرآن ، إذ أنه يجلى جمال القرآن ، ويبرز إبداعه وتفوقه على لغة البشر ، ويؤكد تفرده وتميزه حيث إن البلاغة القرآنية شيء فوق مقدور البشر ، وهى معجزة فى القرآن الكريم بكل ألوانها.

لهذا وجه كثير من العلماء جهودهم نحو استخراج هذه البلاغة وإيرادها وتوصيلها إلى كل من يريد أن يستمتع بهذا الجمال .

ومن أجل هذا آثرت أن يكون بحثى فى القرآن الكريم ، حتى تتاح لى الفرصة أن أتأمل أسلوب القرآن البديع ، وأرتشف ما استطعت من ريقه العذب الفياض ، وينالني منه ما يريد الله لى من تقوى وخير .

فقد كنت دائمة الولع بدراسة القرآن الكريم وشغوفة بتحليل آياته وكلماته فظللت أبحث فيه حتى تصورت أني شفيت غلتى وأشبعت رغبتى فى دراساتى العليا السابقة فى أثناء بحث الماجستير ( آيات الآباء والأبناء فى القرآن الكريم ، دراسة بلاغية ) ، وبحث الدكتوراه ( المال بين البخل والإسراف فى القرآن الكريم ، دراسة بلاغية ) ، وفى بحث آخر قمت به بعد مناقشة الدكتوراه وكان ضمن الأبحاث التي ترقيت بها لدرجة أستاذ مساعد في البلاغة والنقد ( من أسرار التعبير القرآنى فى سورة الممتحنة ) وأوقفت البحث في القرآن الكريم عند حين إذ ثم وجهت عنايتي إلى الشعر وبحثت فترة كبيرة في أشعار العرب وما إن حصلت على درجة أستاذ مساعد في البلاغة والنقد إلا ووجدت نفسي في شوق

جارف إلى البحث في القرآن الكريم مرة أخرى وظللت أفكر في أي موضوع أبحث؟ وأن من عادتي التي أتمنى أن يديمها عليَّ الله – عز وجل – قراءة القرآن وسماعه فكنت مرة أقرأ سورة آل عمران وبينما أنا أقرأ الآيات التي تتحدث عن غزوة أحد شعرت وكأني أقرأ لأول مرة هذه الآيات فعاودت قراءتها مرة ثانية فوجدت في نفسي شيئا غريبا وجدت رغبة ملحة في أن أقف طويلا أمام هذه الآيات ، وليس هذا فحسب بل

أقوم بتحليلها والغوص في معانيها وتأمل بلاغتها وجمالها إذ إن هذه الآيات تتحدث عن أحداث غزوة أُحد وما جرى فيها للمسلمين وقد لمست فيها معنى عظيما يشعر برحمة الله – تعالى – بالمؤمنين ألا وهو الإيناس فأردت أن أظهر الجمال القرآني في هذا المعنى الذي أسرني وسيأسر أي أحد يقرأ هذه الآيات المشتملة على ذلك المعنى العظيم .

لذا آثرت أن يكون بحثي بعنوان ( بلاغة التصوير القرآني للإيناس في غزوة أحد ) .

## ومن أسباب اختيار البحث فى هذا الموضوع:

أولا: السعادة التي تغمرني حينما أقوم بتأمل أي آية قرآنية فأنا شغوفة مولعة جدا بهذا منذ الصغر .

ثانيا : إن هذه الآيات صعبة المأخذ ، بعيدة المرمى تحتاج إلى من يعكف عليها بالدراسة المتأنية المتأملة وهذه ميزة القرآن الكريم فى مجمله إلا أن هذه

الآيات تتجلى فيها هذه الميزة بصورة كبيرة إذ إنها تتحدث فى معظمها عن كيفية التعامل مع قضيَّتَي النصر والهزيمة وهو الأمر الذى يجعل الحديث عنه يتسم بالتعبيرات الرقيقة أحيانا والحادة أحيانا أخرى، والمعانى الهادئة المطمئنة أحيانا والمعاني المروعة أحيانا أخرى ، فأردت أن أكون ممن يعكفون على كتاب الله بالدراسة علَّنى أقترب من الوصول إلى الجزاء العظيم الذى ينتظر كل من خدم كتاب الله بإخلاص وإتقان فى العمل.

ثالثا- الصور التعبيرية فى معنى الإيناس الذي تشمله هذه الآيات متعددة متنوعة جمعت ألوانا بلاغية عديدة كالتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير والذكر والحذف ، والفصل والوصل ، والالتفات ، والتشبيه والمجاز والكناية، وجل ألوان البديع ، وغير ذلك من ألوان البلاغة .

لهذا فقد يممت وجهى شطر القرآن الكريم فى الآيات التي تتضمن الحديث عن أحداث غزوة أحد مدلية بدلوى فى محاولة لبيان الأسرار البلاغية فى هذه الآيات الكريمة.

وقد واجهتنى عقبات خلال هذا البحث ، منها :-

أولا : صعوبة التعرف على مراد الله ﷻ فى الآية وهذه العقبة تواجه كل باحث تقريبا يغوص فى بحر القرآن حيث إنه يتعامل مع اللفظ المعجز والمعنى المدهش الذى أعجز أفصح العرب ، وأكثرهم بلاغة .

وقد نهجت فى هذا البحث المنهج التذوقى إذ إنى أمعنت النظر فى النص

القرآنى واستطعت به أن أتذوق الأساليب البلاغية وأبين نوعها وسرها البلاغى عن طريق النظم وأبرزت الأسرار البلاغية فى الآية بحيث تتكامل وتتآلف فى نسق بارع محافظة فيه على الترابط الدقيق بين ألفاظ الآية بل الآيتين أو الثلاث أو السياق كله إن تطلب الأمر ذلك .

هذا وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تأتى فى مقدمة وتمهيد ،وخمسة مباحث .

المبحث الأول : ***إدخال الإيناس في قلب الرسول والمؤمنين بتذكيرهم بانتصارهم في بدر.***

المبحث الثاني : **وعد الله للمءمنين بإدخال الرعب والفزع في قلوب الكفار.**

المبحث الثالث : **تحذير الله للمؤمنين من اعتقادهم مثل معتقدات الكَفَرة .**

المبحث ارابع **توجيه النبي ﷺ وإرشاده بأن يسلك مسلك الرحمة مع المؤمنين.**

المبحث الخامس :جزاء الشهداء .

وخاتمة، وفهارس فنية وذلك على النحو الآتى:

أما المقدمة: فقد أشرت فيها إلى اسم الموضوع، وأسباب اختياره، والصعاب التي واجهتني في أثنائه وخطته والمنهج الذي سرت عليه وإشارة إلى بعض المصادر التي استقيتها منه .

وأما التمهيد: فقد تحدثت فيه عن النظم القرآني .

وأما صلب الموضوع: فقد قمت فيه بالتحليل البلاغي للآيات التي ورد فيها الحديث عن غزوة أحد وأبرزت من خلاله الخصائص البلاغية للقرآن من خلال تلك الآيات .

وأما الخاتمة: فقد تحدثت فيها عن النتائج المهمة التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة .

ولكى تبدو الدراسة متكاملة أو شبه متكاملة اتبعت فيها الآتى :-

١ - تفسير الغريب الوارد فى النصوص .

٢ - ذكر اسم السورة ورقم الآية المستشهد بها عَبْر آيات الدراسة في الهامش .

٣ - ذكرت بيانات المراجع ، من ذكر المؤلف ورقم الجزء ، والصفحة ، والطبعة، ومكانها ، وتاريخها ، فى هامش الصفحة داخل البحث وعند إعادة ذكر هذا المرجع كنت أذكر اسم المرجع والجزء والصفحة فقط .

وقد استقيت بحثى هذا من كتب التفسير ، والقراءات ، والكتب التى تهتم بأسباب النزول، وكتب الحديث ، واللغة والمعاجم ،.

وأخيرا أرجو أن يكون هذا العمل موفقا وينال القبول من الله ﷻ.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

## التمهيد

## النظم القرآني

قضية النظم القرآني قتلت بحثا إلا أنني وجدت الحديث عنها من الأهمية بمكان إذ إنني أقوم ببيان بلاغة التصوير القرآني للإيناس في آيات غزوة أحد وهو وجه من وجوه الإعجاز .

والإعجاز بالنظم القرآني حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها ، وليست في حاجة إلى أدلة تؤكدها أو قرائن تدعمها.

فقد جرت سنة الله – سبحانه وتعالى – في خلقه أن يبعث رسلا لهم ، لئلا يكون للناس على الله – عز وجل – حجة بعد الرسل .

وهؤلاء الرسل – عليهم السلام – قد اختارهم الله سبحانه وتعالى – من البشر وذلك لأنهم سيحملون رسالة ربهم إليهم فأراد الله – عز وجل أن يكونوا منهم لعل هذا يكون آنسا في قبول الدعوة.

" ويؤيد الله– سبحانه وتعالى– الرسل – عليهم السلام – بأشياء خارقة تخرج عن نواميس الطبيعة لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة بأعجب الأمور في أنظارهم ومبطلة ، لأقوى الأشياء في حسبانهم ،و لئلا يجد المبطلون متعلقا يتشبثون به ، وسبيلا يتخذونه إلى خداع الضعفاء "

والله – سبحانه وتعالى – يؤيد كل رسول بمعجزة تتلاءم وحال قومه ، فموسى – عليه السلام – مثلا أيده الله – سبحانه وتعالى – وكان عصره عصر سحر – بانفلاق البحر ، وانقلاب العصا حية ، وانبجاس الحجر ، وتغيير لون يده – عليه السلام – .

وعيسى – عليه السلام – أيده – سبحانه وتعالى– وكان عصره عصر طب – بإبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، وإحياء الموتى بإذنه .

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أيده بمعجزات حسية كثيرة ، وأيده بمعجزة عقلية غيرت تاريخ اللغة العربية وجعلت لها قيمة لم تكن لها من قبل ألا وهي ( القرآن الكريم ) وهو الذي عجز العرب عن مماثلته في نظمه وتأليفه " وكان ذلك في زمن سما فيه شأن البيان ، وجلت مكانته في صدور أهله ، وعرفوا باللسن والفصاحة ، وقوة العارضة في الإعراب عن خوالج النفوس ، والإبانة عن مشاعر القلوب " [١] وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتحداهم ، ويقرعهم ، ويعجزهم حتى ذلوا وخضعت رقابهم من سحر القرآن الكريم .

وقد اختلف العلماء في وجه إعجاز القرآن الكريم ، فقال بعضهم : إن الإعجاز بالصرفة[٢]، وتحدث آخرون عن الإعجاز العددي [١]، والإعجاز

---

[١]- إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥.

[٢]– ينظر في الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني – تحقيق محمد السيد كيلاني ج ٢ص٥٧ .ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر ت.ط١٣٩٦هـ–١٨٩٧٦م – الإعجاز القرآني في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها – لعبد الكريم الخطيب – من ص ٣٦٤ – ٣٧٥ ط ملتزم الطبع والنشر – دار الفكر العربي – الطبعة الأولى ١٩٧٤ م .

العلمي [٢]، وقال آخرون بأن من وجوه الإعجاز : الإخبار عن الأمم الماضية أو الإخبار عن الأمور المستقبلية [٣] ومنهم من ذهب إلى أن النظم هو وجه إعجاز القرآن الكريم ، وهذا يتحقق في كل سور القرآن الكريم وفي كل آياته .

يقول الإمام عبد القاهر في معنى النظم : " اعلم أن : ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها " [٤].

إذاً النظم عند عبد القاهر هو توخي معاني النحو ، فالنظم عنده يتحقق في بيان مجموعة من العلاقات بين الكلمات وارتباط بعضها ببعض في تماسك شديد بحيث تفتقر كل كلمة إلى ما بعدها في انسجام وتناسق .

---

١- ينظر في معترق القرآن في إعجاز القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي – تحقيق علي محمد البيجاوي –ج ١ ص ٢٢ ، بدون ، ومع القرآن في إعجازه وبلاغته من ص ٧٦ إلى ٧٨ والإعجاز العددي للقرآن الكريم لعبد الرازق نوفل .

٢- ينظر المعترق ص١٧ والإعجاز العلمي د.– محمد القمراوي . ط دار الشعب .

٣- إعجاز القرآن للباقلاني .

٤- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر – ص٤ ، ،مطبعة المدني بالقاهرة ومطبعة المدني بجدة .

**وهذا يبدو واضحا في نظم القرآن الكريم ، فالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم بحر متلاطم من الأسرار والعلوم ، بحيث لا يستطيع باحث أن يجليه تجلية كاملة وغاية ما يحققه أن يضيف لبنة في صرح شامخ . " [(١)].**

**والآية كلها تكون كاللؤلؤ المنظوم لا يجوز أن تسقط لؤلؤة من هذه اللآلئ وإلا ضاع بهاؤها وذهب جمالها ، وهذا يستحيل قطعا على النظم القرآني .**

**" فالقرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمنة أصح المعاني .......واشتمل على عمود البلاغة في وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي أبدل مكانه غيره " [(٢)].**

**وهذه آية وردت في البحث يبدو فيها بديع النظم ، وعجيب التأليف ، والترابط بين الكلمات ارتباطا وثيقا بحيث لا يمكن أن يسقط منه شيء ويستبدل مكانه الآخر.**

---

[١]-أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا- رسالة دكتوراه د. عبد الغني سعد بركة – ص٥٦ –إشراف أ. د.أحمد إبراهيم موسى –كلية اللغة العربية بالمنصورة – ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م .

[٢]- بيان إعجاز القرآن للخطابي ، من ٢٤-٢٦ ، بدون .

يقول – تعالى–:﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾ آل عمران .

فأبرز ما يروعنا في هذه الآية هو ترابطها وتماسكها الشديد بحيث لا يجوز أن تستبدل كلمة بغيرها ، أو أن تضع حرفا مكان آخر ، فصاحب الذوق البلاغي حينما يقرأ هذه الآية تُثار في نفسه عدة تساؤلات منها :

لماذا عبر – تعالى – بالفعل المضارع ( سَنُلْقِي ) بدلا من الفعل الماضي ( ألقينا ) . ؟

ولماذا أوثرت ( السين ) بدلاً من ( سوف ) فى التعبير؟

وما فائدة قراءة الفعل { نلقي } بالنون مرة والياء مرة أخرى ؟

ولماذا أوثر لفظ القلب جمعاً ( القلوب )على لفظ المفرد القلب في الآية ؟

وبماذا توحي إضافة ( قلوب ) إلى ( الذين كفروا ) ؟

ولماذا أوثر لفظ ( الرعب ) على غيره كـ( الخوف ) مثلا ؟

وبماذا أشعر التصوير في قوله : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ؟

ولماذا أوثر التعبير بالفعلين الماضيين ( كَفَرُوا – أَشْرَكُوا) بدلا من ( يكفرون – يشركون ) ؟

ولماذا قدم الجار والمجرور فى قوله– تعالى–:﴿قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على المفعول﴿الرُّعْبَ﴾؟.

ولماذا أوثر التعريف بالموصولية بدلا من غيرها من أنواع المعرفات كالعلمية مثلا فى قوله – تعالى – :﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾؟

وما السر في ذكر لفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ فى هذا المقام؟

وما الغرض من تنكير﴿سُلْطَانًا﴾؟

وما السر في إضافة ( المأوى ) إلى ضمير الكفار فى قوله – تعالى – :﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾؟

وما السر في إيثاره – تعالى – للفظة ( نار ) بدلاً من أى لفظ آخر كـ ( السعير ) مثلا؟

وما الغرض من حذف المخصوص بالذم فى قوله – تعالى -:﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾؟

ولماذا أوثر الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ ؟

وقد أسرنا في هذه الآية أيضاً وجذب قلوبنا وشد أسماعنا اتساق جملها ، وتلاحم أجزائها وارتباط كلماتها ارتباطا شديدا .

وهذا كله قد أحدث في النفس روعة وهيبة يعجز اللسان عن وصفهما .

وفي خلال البحث سنجد آيات وآيات من هذا القبيل ، ففيها من الأسرار البلاغية ، والصور البيانية ، والألوان البديعية ما يملأ القلب والوجدان إيمانا ويقينا بأن هذا القرآن من عند الله وحده لا شريك له .

يقول – تعالى – في سورة الإسراء : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾.

## بلاغة التصوير القرآني للإيناس في غزوة أحد

**غزوة أُحُد حدثت فى شوال سنة ثلاث من الهجرة حيث نزل مشركو مكة ومن معهم من حلفائهم سطح جبل أحد حول المدينة وقرروا الأخذ بالثأر بما نالهم يوم بدر من الهزيمة ، فاستشار رسول الله أصحابه فيما يفعلون وفيهم عبد الله بن أُبى بن سلول رأس المنافقين فأشار جمهورهم بالتحصن بالمدينة حتى إذا دخل عليهم المشركون المدينة قاتلوهم في الديار والحصون فغلبوهم وإذا رجعوا رجعوا خائبين .**

**وأشار فريق بالخروج ورغبوا فى الجهاد مع رسول الله ﷺ فأخذ النبى ﷺ برأى المشيرين بالخروج ولبس لأمته ، ثم عرض للمسلمين تردد فى الخروج فراجعوا رسول الله ﷺ فقال : " لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وخرج بالمسلمين إلى جبل أحد وكان الجبل وراءهم ، وصفهم للحرب وانكشفت الحرب عن هزيمة خفيفة لحقت بالمسلمين بسبب مكيدة عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين إذ انخذل هو وثلث الجيش فكان عدد جيش المسلمين سبعمائة وعدد جيش أهل مكة ثلاثة آلاف وهمت بنو سلمة وبنو حارث من المسلمين بالانخذال ثم عصمهم الله – تعالى–. (١) وقتل من المسلمين فى هذه الغزوة سبعون ومن المشركين نيف وعشرون .**

---

(١) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ج ٤ ص ٦٩ ، ٧٠ ط الدار التونسية للنشر. ط بدون تاريخ

# المبحث الأول

## إدخال الإيناس في قلب الرسول والمؤمنين بتذكيرهم بانتصارهم في بدر

**والآيات التي أدخل الله – سبحانه وتعالى بها – الإيناس في قلب نبيه – صلى الله عليه وسلم –والمؤمنين بتذكيرهم بانتصارهم في غزوة بدر تأتي على النحو التالي :**

**يقول - تعالى-:**

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

**فالآية الأولى من الآيات الكريمة تذكر الرسول ﷺ بالوقت الذى خرج فيه من بيت إحدى زوجاته وهو بيت السيدة عائشة رضى الله عنها وذلك لتنظيم الجيش وإعطاء كل جندى مكانه المناسب وذلك استعداداً لمحاربة الأعداء فى غزوة أُحُد .**

**يقول الله -تعالى-:** ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وواضح أن السياق يبدأ باستعادة المشهد الأول للمعركة واستحضاره – مع أنه كان قريباً من نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ومن ذاكرتهم . وذلك لأن "ابتداء الحديث على هذا النحو واستحضار المشهد الأول بهذا النص من شأنه أن يعيد المشهد بكل حرارته وبكل حيويته، وأن يضيف للمشهد المنظور – الذي يعرفونه – من حقائق أخرى لا يتضمنها المشهد المنظور. وأولها حقيقة حضور الله – سبحانه – معهم وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم .

وهي الحقيقة التي تحرص التربية القرآنية على استحضارها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها في التصور الإسلامي .

وهي الحقيقة الأساسية الكبيرة التي أقام عليها الإسلام منهجه التربوي، والتي لا يستقيم ضمير على المنهج الإسلامي بكل تكاليفه إلا أن تستقر فيه هذه الحقيقة بكل قوتها وبكل حيويتها كذلك"(١)

ويلاحظ الإيجاز فى قوله – تعالى – :﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ والتقدير: واذكر إذ غدوت (٢) وقد كان هذا الحذف للمسارعة إلى المطلوب وهو تذكير النبي ﷺبما حدث فى الماضى من غدوِّه من بيت إحدى زوجاته – ، واستعداده لغزوة أُحُد .

---

( ١) في ظلال القرآن سيد قطب ج١ ص٤٣٨ ط دار الشروق .

(٢) السابق نفسه

**وقد قال الإمام عبد القاهر عن الحذف : " هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ،عجيب الأمر ،شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عند الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأبين ما تكون إذا لم تبن " . (١)**

**وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها ، واستحضار الحادثة بكل تفاصيلها . (٢)**

**وعبر بالفعل الماضى (غدوت ) وذلك للإشعار بأن هذا الفعل قد وقع من الرسول ﷺ وقوعاً حقيقياً ، وأن الخروج من الرسول ﷺ في وقت الغُدوة لتنظيم الجيش قد حدث بالفعل .**

**ويأتي الإيجاز مرة أخرى فى قوله – تعالى – :﴿مِنْ أَهْلِكَ ﴾والتقدير من بيت أهلك ، وقد تعاون هذا الإيجاز مع الإيجاز السابق فى تحقيق المراد وهو المسارعة إلى المطلوب .**

**وإضافة (أهل) إلى ضمير المخاطب الذى يعود إلى رسول اللهﷺ فى قوله – تعالى:**

---

(١) دلائل الإعجاز لشيخ عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر ص ١٤٦ ط، المدني بالقاهرة .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ، ص ٤٠٧ ط ، دار الفكر العربي .

ـــ ﴿أَهْلِكَ﴾ توحي بالاختصاص فالذين غدا من عندهم الرسول ﷺ هم أهله هو لا أهل غيره وهم الذين يمثلون له الأمان والسكينة ومع هذا تركهم ليمْتَثِل لأمر الله ، وهذه الإضافة تضفى جواً من الخفاء والستر ؛ إذ لم تصرح باسم زوجته التي كان عندها في هذه الليلة وفى هذا إجلال وتقدير للرسول ﷺ وزوجاته .

كما أن هذه الإضافة تصور إلى أى مدى كان رسول الله ﷺ حريصاً على نصرة الإسلام والدفاع عنه حتى ولو كلفه ذلك ترك أو مفارقة مَن يحب من أزواجه أو سكن أو طعام.

وكأن فى هذه الإضافة الرد على أعداء الدين الذين يقولون إن الرسول ﷺ كان شديد الحب للنساء ومؤثراً لمجالستهن ومصاحبتهن وأنه لا يستطيع مفارقتهن مهما كان السبب .

وكلمة ﴿تُبَوِّئُ﴾ بما تشتمل عليه من حروف الشدة والجهر ( الباء – الهمزة ) تساعد فى تصوير ما كان يملأ جوانح الرسول ﷺ من قلق واضطراب وخوف على الإسلام والمسلمين ، كما توضح الحزم الذى كان عليه أثناء اختيار المقاعد للمؤمنين بحيث يضع كلا فى موضعه .

وآثر التعبير القرآنى لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بدلاً من غيره كالمسلمين مثلاً وذلك لأنه سبحانه

تعالى- يعلم أنه لا يستطيع الدفاع عن الدين إلا من كان مؤمناً إيماناً حقيقياً إيماناً يستطيع به معه أن يتحمل المشاق من أجل دينه ، كما أن هذا التعبير يشير إلى أنه كان بتلك الفترة يوجد منافقون يظهرون الإسلام والإيمان ويضمرون الكفر والنفاق مثل عبد الله بن أُبي بن سلول .

وكأن فى هذا التعبير ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأحرفه القليلة قد منع ترشيح أى شخص لم يكن مؤمناً إيماناً كاملاً للقتال من أجل الدين .

وتنكير ﴿مَقَاعِدَ﴾ يشعر بعظمة تلك المقاعد وكثرتها ، وهذه العظمة تأتى من أنها أماكن لمؤمنين عظام يحملون القرآن فى قلوبهم والتعاليم الإسلامية فى عقولهم والكثرة تأتى من أن المسلمين قد زاد عددهم فى تلك الغزوة ( أحد ) عن سابقيها وقويت شوكتهم .

ويلاحظ حذف الصفة فى قوله - تعالى- :﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾والتقدير مقاعد كائنة للقتال (١) وهذا الحذف يطلق العنان للذهن فيتخيل ما يتخيل ويتصور ما يتصور من الأوصاف الممكنة للمقاعد كما أدى هذا الحذف إلى الاختصار .

وعرف المسند إليه بالعلمية ( الله ) وذلك لإدخال الأنس والطمأنينة فى قلوب المؤمنين المقاتلين وزرع السكينة فى نفوسهم وإحاطة غيرهم من الكافرين بالهلع والقلق .

---

(١) التحرير والتنوير ج ٤ ص ٧١.

**ويلاحظ أن صفة السمع قد قدمت على صفة العلم مع أن "الترتيب الوجودى يقتضي تقديم صفة العليم لأنها إحاطة بالعقائد ، والسميع صفة يترتب عليها العلم بالأقوال الناشئة عن العقائد فحقها أن تقع بعدها لكن النظم يعكس هذا الترتيب مراعاة لعلم المخاطبين الذين يستدلون بالظواهر على البواطن ، ولكون تأخير العليم يحقق تناسب الفواصل "(١)**

**ومجئ هاتين الصفتين على صيغة المبالغة ( فعيل ) يوحى بالمبالغة فى اتصاف الله –عز وجل – بهاتين الصفتين وأنه لا يماثله فيهما أحد .**

---

(١) من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية د / محمد أمين الخضرى ص ٤٣ . ت – ط ١٩٩٤ م بدون .

والآية التالية توضح أن هناك طائفتين من طوائف المسلمين قد همتا بالتخلى عن الرسول ﷺ فى تلك الفترة لكن من عناية الله – تعالى– بهما قد أرجعهما إلى طريق الصواب .

وفى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : " نحن لطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وفينا نزلت ( إذ همت طائفتان منْكم أن تفشلا )

ومما يسرنى أنها لم تنزل والله يقول : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾(١)

يقول – تعالى–: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾ .

ويلاحظ – أنه تعالى –عبر بالفعل الماضى فى قوله – تعالى – : ﴿هَمَّتْ﴾ وذلك للإشعار بأن الهم قد تحقق من هاتين الطائفتين ووقع منهما بالفعل وأن تخليهما عن المسلمين كان سيقع لولا عناية الله بهما .

وآثر التعبير القرآنى لفظ ( طَائِفَتَانِ ) ولم يذكر اسمهما قصداً إلى إخفاء اسمهما ستراً عليهما وحتى لا يكون هذا الأمر وصمة فى جبينهما وسببا فى فضيحتهما والتشهير بهما على مر الأزمان ، كما أن فى التعبير بلفظ (طَائِفَتَانِ ) إيجاز يتطلبه المقام فلو عبر – تعالى– باسمي الطائفتين وقال (

---

(١) التحرير والتنوير ج٤ ص ٧٠ .

إذ همت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس (١) لكان إطنابا مخلا – وحاشا للقرآن أن يكون فيه ذلك – ولم يتحقق الإيجاز والاختصار المراد .

واشتمال اللفظ ( طَائِفَتَانِ )على أحد حروف الشدة ( الطاء ) مع حرفين من حروف الهمس ( الفاء – التاء ) يساعد على تصوير القلق والاضطراب الذي كان يحيط بهاتين الطائفتين لمجرد تفكيرهم في هذا الأمر ( الهم ) كما يوضح الصراع الذي كانوا يعيشون فيه بين أن يتخلوا عن رسول الله – بسبب خوفهم من الموت في الغزوة وبين وقوفهم بجانبه في المعركة وعدم التخلي عن إخوانهم المسلمين المقاتلين لكن لفطرتهم السليمة تراجعوا عن موقفهم .

وتنكير ( طائفتين ) يوحى بعظمة هاتين الطائفتين وهذه العظمة تأتى من أنهما كانتا محل عناية الله – عز وجل – إذ أرجعهما إلى الصواب ولا شك أن هذه عظمة ما بعدها عظمة ورفعة ما بعدها رفعة .

وقدم الجار والمجرور فى قوله – تعالى – :﴿مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾وذلك لأنه من المهم أولاً بيان أن الطائفتين اللتين صدر منهما ذلك الهم هما من طوائف مسلمى الأنصار وأنهما من داخلهم ، ثم بيان نوع الهم ثانياً.

والتعبير بالمضارع فى قوله – تعالى – :﴿تَفْشَلَا﴾ وذلك لاستحضار صورة نتيجة الهم (الفشل ) وتصويرها حتى يكون عظة لمن تسول له نفسه

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٠٨ .

أن يفكر في هذا الأمر والخذلان وخيبة الأمل وإن كان هذا الفشل لم يقع منهما وإنما الذى وقع منهما هو مجرد الهم بالفشل.

ويلاحظ التصوير فى قوله – تعالى – :﴿تَفْشَلَا﴾ حيث شبه الضعف بالفشل ، ثم استعير الفشل للضعف ثم اشتق من الفشل ﴿تَفْشَلَا﴾ بمعنى تضعفا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فى الفعل ، وهذه الاستعارة تصور إلى أى مدى كان الفشل سيكون من نصيب هاتين الطائفتين ، لولا أنهما قد رجعا عن ذلك الهم وإلا كانتا ستخسران كل شيء فى لحظة الضعف هذه .

وقد قال عبد القاهر عن جمال الاستعارة وبلاغتها : " ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً وتوجب له بعد الفضل فضلاً ومن خصائصها التى تذكر لها وهو عنوان مناقبها أن يعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد ألواناً من الثمر."(١)

وحرف الهمس ( الشين ) يساعد فى تصوير الضعف الذى كان يملأ نفوس هاتين الطائفتين وأنه بلغ مبلغاً عظيماً بحيث أنه لو تغلب عليهما

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى تحقيق السيد رشيد رضا ص ٦ ط دار المدني بالقاهرة .

لضاع كل ما قاما به من أجل الإسلام وخسرا كل ما مُنِحاه من عزة وشرف بسببه .

وقوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ كناية عن عناية الله – تعالى– بهاتين الطائفتين ورأفته –تعالى– بهما وإرادة الخير لهما إذ أراد – تعالى– أن يرجعهما إلى طريق الصواب .

ويؤكد هذا المعنى التعبير بلفظ الجلالة ( الله ) الذي يوحي بالطمأنينة والاحتواء والدفء الذي كان تحتاج إليه هاتين الطائفتين مما يبرز رغبة الله – عزة وجل – الأكيدة في الوقوف بجانب هاتين الطائفتين ونجاتهما من الضعف الذي سيُؤدي بهما إلى الفشل وهذا يشعر بعظم هاتين الطائفتين وارتفاع منزلتهما ومدى اهتمام الله – عز وجل بهما –.

ويتضح القصر فى قوله – تعالى – :﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾ إذ قصر التوكل على الله قصراً حقيقياً تحقيقياً من باب قصر الصفة على الموصوف عن طريق التقديم وهذا القصر يوحى بأن التوكل محصور على الله – تعالى– وأنه لا يتعداه إلى غيره وأنه لا ينبغي التوكل إلا عليه وحده – تعالى– إذ بالتوكل عليه يتحقق الخير والصلاح .

والمراد من الأمر الذى جاء على صيغة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر فى قوله

– تعالى – :﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾النصح والإرشاد فالله سبحانه و– تعالى– من خلال هذه الآية ينصح الأمة الإسلامية ويرشدها إلى طريق الخير الذى يوصلها إلى خيرى الدنيا والآخرة وهو التوكل على الله – عز وجل – وهذا يشعر برحمة الله بعباده وحبه لهم إذ يريد – تعالى– أن يوجههم إلى طريق الخير والفلاح

ويلاحظ الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿وَعَلَى اللَّهِ ﴾ إذ كان مقتضى السياق أن يقال : ( وعليه فليتوكل المؤمنون ) بالإضمار إذ أظهر لفظ الجلالة ( الله ) سابقا في قوله – تعالى – : (وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ) وذلك تنزيهاً وإجلالاً له – تعالى– فى هذا المقام ، كما أن فى الإظهار تقوية لداعي الامتثال لأمره – تعالى– بذكر المتوكل عليه وهو الله – تعالى– وفى هذا من التشجيع والحث على فضل هذا المتوكل مالا يخفى .

و ( ال ) فى قوله – تعالى – :﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للعهد ، وهذا يشعر بأنه لا يتوكل على الله حق التوكل إلا من كان معهودًا بالإيمان معروفًا به راسخًا في قلبه . ويجوز أن تكون ( ال ) للجنس "فيدخل فيه الطائفتان دخولاً أولياً وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعى التوكل وموجباته"(١)

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٠٨ .

وتأتى الآية اللاحقة لتذكر المسلمين بمنة الله – تعالى– عليهم إذ نصرهم يوم بدر فى الوقت الذى كانوا فيه قلة ضعفاء منكسرين ، ثم يأمرهم بتقواه – تعالى– لعل هذا يكون سببا فى الإنعام عليهم فيقدمون شكرهم الجزيل إلى الله –عز وجل –.

يقول – تعالى–: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

ويلاحظ حذف المقسم به فى قوله – تعالى – :﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ﴾ و التقدير ( والله لقد نصركم ) وقد أدى هذا الحذف إلى الإيجاز والاختصار ، والوصول إلى المطلوب بأقصى سرعة وهو تذكير المسلمين بنصر الله لهم في بدر.

وآثر التعبير بالفعل الماضى المصحوب باللام الموطئة للقسم و( قد) التي تفيد التحقيق وذلك للإشعار بأن النصر قد وقع وتحقق من الله للمسلمين يوم بدر وفي هذا من إظهار المنة والفضل ما لا يخفى .

وأظهر فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ وذلك تمكيناً للاسم المظهر وتقوية لداعى الامتثال لأمره – تعالى–، كما أن فى هذا الإظهار تعظيما لله – عز وجل– وتعظيم النصر الذى منَّ به على نبيه والمسلمين فى ذلك اليوم .

وآثر الذكر لفظ الجلالة فى هذا المقام وذلك لأنه مقام خير وإنعام فـ" الحى الكريم عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضر لا يذكر نفسه . " (١)

و( بدر): " اسم لماء بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر بن كلدة فتسمى باسمه ، وقيل سمى به لصفاته كالبدر واستدارته ، وقيل هو اسم الموضع أو الوادى ، وكانت وقعة بدر فى السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنين من الهجرة . " (٢)

وفى التعبير بضمير الخطاب فى قوله – تعالى – : ( نَصَرَكُمُ – وَأَنْتُمْ) ما يشعر بارتفاع منزلة المخاطبين وعلو مكانتهم إذ يخاطبهم الله سبحانه و– تعالى– بنفسه ويجعلهم وكأنه معهم حاضرٌ في ساحة الخطاب مما يؤكد عظم شأنهم إذ لم يتحدث عنهم بصيغة الغائب إذ كان من الممكن أن يقول (ولقد نصرهم الله ببدر وهم أذلة ) .

وقوله – تعالى – :﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ كناية عن قلة عدد المسلمين وضعفهم وانكسارهم في هذه الغزوة ، والكناية كناية عن صفة ، وهذا التصوير يكشف عن احتياجهم الشديد إلى ربهم فى هذا اليوم وعناية الله بهم ورأفته – تعالى– إذ جعلهم من لا شيء شيئا عظيما قويا يرهب الأعداء .

---

(١)التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ج٥ ص ٢٩ ط دار إحياء التراث العربى بدون تاريخ.

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٠٩ .

" والكناية من أروع الفنون البيانية وأدق الطرق البلاغية التى يعبر بها المتكلم عن المعنى الذى يريده تعبيراً موجزاً هادفاً لطيفاً يخفى وراء ظلاله أهدافا ولطائف يريدها ويقصدها " (١) .

وعبر بجمع القلة ( أَذِلَّةٌ ) بدلاً من جمع الكثرة ( أذلاء ) وذلك للإشعار بأنهم كانوا قلة مستضعفة لا يقدرون على القتال وحمل السلاح و التصدى للأعداء .

" والذلة التى ظهرت لغيرهم عليهم هى ما كانوا عليه من قلة السلاح والمال والمركوب خرجوا وكان يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم من الخيل إلا فرس واحد ومع عدوهم مائة فرس فكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة رجال ، سبعة وستون من المهاجرين ، وصاحب رايتهم علي بن أبى طالب ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار وصاحب رايتهم سعد بن عبادة ، وقيل ثلاثمائة وستة عشر رجلاً ، وقيل ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً .

وفى رواية ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وكان عدوهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل " (٢) وجمع القلة هو خير طريق للتعبير عن هذا المعنى .

---

(١) من الأسرار البيانية فى الكناية أ. د / حمزة الدمرداش زغلول ص ٥ – المطبعة الإسلامية الحديثة ، ت . ط الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

(٢) البحر المحيط ج ٣ ص ٣٣٠–تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٠٨ .

والمراد من الأمر فى قوله – تعالى – :﴿ فَاتَّقُوا﴾ الحث على الاتصاف بصفة التقوى بأن ينفذوا ما أمرهم الله به من طاعات ويتركوا ما نهاهم الله عنه من معاصى .

والمراد من الأمر في قوله – تعالى – : { فَاتَّقُوا } النصح والإرشاد للمؤمنين والطائعين والتهديد للكفار ولكل من خرج عن تقوى الله – عز وجل – وبهذا يكون التعبير بلفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لإدخال الأنس والطمأنينة فى قلوب المتقين الذين اؤتمروا بأوامر الله وانتهوا بنواهيه ، وإدخال الهيبة والروع فى نفوس غير المتقين ونحوهم .

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :َ﴿تَشْكُرُونَ﴾ إذ أطلق المسبب ( الشكر)وأراد السبب

( الإنعام ) على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المسببية.

وهذا المجاز يوحى بالتلازم الشديد بين الإنعام والشكر إلى درجة يمكن معها أن يطلق كل منهما على الآخر .

وترجع بلاغة المجاز المرسل إلى الإيجاز إلى جانب ما يفيده من " المبالغة فى تأكيد المعنى وتقريره فى النفس لأنه كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ". (١)

---

(١) لباب البيان أ . د / محمد حسن شرشر ١/ ٢٢ ط ١٩٨٢م .

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿تَشْكُرُونَ ﴾ وذلك للإشعار باستمرار الشكر وتجدده كلما تجددت نعمة من الله للمتقين ، وكأن التعبير بهذا الفعل يحمل البشرى لهم ، إذ يوحى هذا التعبير باستمرار النعم التى يمن الله بها سبحانه و– تعالى– على عباده المتقين .

وتأتى الآية التالية التى يذكر فيها سبحانه نبيه الكريم بالوقت الذى قال فيه للمقاتلين من غزوة بدر حينما رأوا فى أنفسهم ضعفا وقلة : ( أليس بكاف لكم أن يمدكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة يعاونونكم فى تلك المعركة منزلين من قبل الله – تعالى–) .

يقول الله – تعالى–:﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)﴾ .

سبب نزول هذه الآية : " قال الشعبى : بلغ المسلمين أن كرز بن جابر الحنفى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين المؤمنين فنزلت حينئذ " (١)

وصدرت هذه الآية بـ ( إذ ) الظرفية وذلك إشارة إلى الوقت الذى قال فيه الرسول ﷺ هذا الكلام .

---

(١) تفسير ابي السعود ج ١ ص ٤٠٩ .

" وظاهر هذه الآية اتصالها بما قبلها وأنها من قصة بدر وهو رأي الجمهور وعلى هذا يكون ( إذ ) معمول بنصركم .

وقيل : هذا من تمام قصة أحد فيكون قوله – تعالى – :﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ معترضاً بين الكلامين لما فيه من التحريض على التوكل والثبات للقتال وحجة هذا القول أن يوم بدر كان المدد فيه من الملائكة بألف وهنا بثلاثة وخمسة آلاف وقال :﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ ﴾ أى الإمداد ويوم بدر ذهب المسلمون إليهم . (١)

وقوله :{ إذ } ظرف نصب بقوله – تعالى – : {نَصَرَكُمُ } " قدم عليه الأمر بالتقوى لإظهار كمال العناية به ، والمراد به الوقت الممتد الذى وقع فيه ما ذكر بعده وما طوى ذكره وتعويلاً على شهادة الحال مما يتعلق به وجود النصر " (٢)

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿ تَقُولُ ﴾ وذلك لاستحضار الصورة الماضية ( النصر وقت قول رسول الله ﷺ ذلك القول ).

واستشعار هذا الموقف والإحساس به وكأنه مشاهد أمام النواظر ومرئى من الأعين

---

(١) تفسير البحر المحيط ج ٣ ص ٣٣١ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص٤٠٩ .

"فقد أعاد المضارع صورة الشدة التى صاحبت غزوة بدر من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين ، وفى هذه الإعادة فائدة جليلة حيث يتبين المؤمنون عظمة نعمة الله عليهم وتحقيق النصر لهم على عدوهم مع أنه أكثر منهم عدداً وعدة "(١)

وقوله – تعالى – :﴿إِذْ تَقُولُ ﴾ تلوين الخطاب بتخصيصه برسول الله ﷺ لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته .

والمراد من الاستفهام فى قوله – تعالى – :﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ ﴾ التقرير والإنكار فالرسول ﷺ كان يريد منهم أن يقروا بكفاية هذا المدد منكراً عليهم مواقفهم من الضعف والخوف والشعور بالهزيمة .

وإيثار أداة النفى { لن } على ( لم " لأن الحديث منصب على المستقبل حيث كان خطاب الرسول ﷺ للمؤمنين قبل وقوع القتال ولذلك أوثر المصدر المؤول ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ ﴾ على التصريح( إمدادكم ) ولو كان الخطاب بعد الفراغ من القتال لأوثر أدوات الماضى على الاستقبال ". (٢) .

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم أ. د عبد العظيم المطعنى ج ١ ص ١٧٩ الناشر مكتبة وهبة ، ت . ط الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم ج ١ ص ١٨٠ .

واشتمال التعبير ﴿ يَكْفِيَكُمْ ﴾ على الحروف المهموسة كـ ( الكاف – الفاء) والحرف الشفوى ( الميم ) يساعد فى تصوير ما عليه الرسول ﷺ من المخافتة والمهامسة وكأنه ﷺ يريد ألا يخرج هذا الكلام من بين شفتيه إلى المقاتلين الذين كانوا معه حتى لا ينتقل هذا الكلام إلى أحد من المشركين فيزداد استعدادهم وتجمعهم .

وأما اشتمال التعبير ﴿يُمِدَّكُمْ﴾على الحرف الشديد المجهور( الدال ) فيشعر بالشدة والحسم الذى كان عليهما النبى ﷺ أثناء هذا القول ، كما يشعر برغبة الرسول ﷺ القوية فى خروج المسلمين للقتال فى تلك الغزوة ، وغضبه الشديد من ترددهم وقلقهم من قلتهم وضعفهم.

وفى التعبير بلفظ الربوبية فى قوله – تعالى – :﴿ رَبُّكُمْ ﴾ ما يشعر بالإيناس والطمأنينة وإدخالهما فى قلوب المقاتلين لما فى هذا اللفظ من معنى التربية والعناية والحنو .

وإضافة ( رب ) إلى ضمير المخاطبين فى القول السابق ، وذلك للإشعار بعلو منزلتهم وارتفاع شأنهم إذ إن هذه الإضافة توحى بالاختصاص وكأنه ربهم وحدهم لا رب سواهم فالتعبير القرآني قد راع الحالة النفسية للمقاتلين إذ بهذا التعبير قد منحهم القوة وبث في نفوسهم الثقة.

وتنكير ﴿ آَلَافٍ﴾ يوحى بالكثرة والقوة وشدة البأس ، ولو جاء التعبير هكذا ( يمدكم ربكم بالآلاف الثلاثة من الملائكة ) لما أعطى المعنى السابق من القوة والكثرة .

" ووصف الملائكة بمنزلين للدلالة على أنهم ينزلون إلى الأرض فى موقع القتال عناية بالمسلمين كما أن فى هذا الوصف تفخيما للإمداد، وجعل الملائكة منزلين فيه إشارة إلى خصوصية المهمة التى نزلوا من أجلها ، فهم فرقة خاصة من الملائكة نزلت لهدف خاص ، وليسوا من الملائكة الذين يقومون بعمل فى الأرض من الحفظة والرقباء والطوافين

فى الأرض " (١) .

قال – تعالى-: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾(٢)

" وقرأ الجمهور : منزلين بسكون النون وتخفيف الزاى ، وقرأه ابن عامر : بفتح النون وتشديد الزاى ،. " (٣) ، فقراءة التخفيف لا تشعر إلا بمجرد إنزال الملائكة أفواجاً أفواجاً .

---

(١) السابق نفسه .

(٢) سورة الحجر : آية ٨ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج ٤ ص ٧٤ .

وأما قراءة التشديد فتشعر بالكثرة والقوة كما توحى بإنزال الملائكة على جهة التدرج "قيل أمدهم الله – تعالى– أولاً بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف "(١)

وقراءة الفعل مرة بالتشديد ومرة بالتخفيف حقق الإيجاز ، إذ لو لم تكن هذه القراءة لقيل يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منْزِلين وثلاثة آلاف من الملائكة منَزَّلين .

وتأتى الآية اللاحقة التي استكمل فيها باقى الحوار بين الرسول ﷺ والمسلمين المقاتلين والذى بدأ فى الآية السابقة إذ يوجههم في هذه الآية وينصحهم بالصبر والتقوى لعل هذا يكون سببًا لرضى الله عنهم فيمن عليهم بالعون والمدد بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ليؤازروهم ويساندوهم فى تلك المعركة .

يقول : ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ .

ويلاحظ أن التعبير القرآنى قد آثر لفظة {إِنْ } بدلاً من ( إذا ) وذلك لأن صبرهم وتقواهم أمر يشك فى وقوعه فى تلك الفترة وهذه الظروف العصيبة التى كانت تحيط بهم من قلة وضعف وإن حدث سيكون حدوثه من فئة مؤمنة وهؤلاء كانوا قلة لجدة عهدهم بالإسلام وهذا يناسبه التعبير ب{إِنْ } .

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤١٠ .

وقدم الصبر على التقوى وذلك لأن الصبر كالمقدمة والتقوى كالنتيجة فبدون الصبر لا يصل المسلم إلى درجة التقوى . إذ التقوى لابد فى الوصول إليها من الصبر على المكاره .

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :( تَصْبِرُوا – وَتَتَّقُوا) وذلك للإشعار بضرورة استمرار هذين الفعلين من المقاتلين بل وتجددهما منهم فلابد من أن يكون هذان الوصفان وصفين ملازمين للمسلم حتى يستحق مدد الله وعونه فى كل وقت ومكان ، كما أن فى هذا التعبير استحضارًا لصورة الصبر والتقوى وكأنهما ماثلان أمامهما يشاهدونهما فيعجبون بهما ويتخلقون بهذين الخلقين العظيمين .

وقوله – تعالى – :﴿ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا "﴾ فعل الشرط وجوابه قوله – تعالى – :﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ الخ . وعليه فموقع قوله – تعالى – :

﴿ وَيَأْتُوكُمْ ﴾ موقع وعد فهو فى المعنى معطوف على ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ وكان حقه أن يرد بعده ولكنه قدم على المعطوف عليه ، تعجيلاً للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين ، فيكون تقديمه من تقديم المعطوف على المعطوف عليه".(١)

(١) التحرير والتنوير ج ٤ ص ٧٤ .

أما التعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ وذلك لاستحضار صورة إتيانهم إليهم حتى يكونوا على أتم الاستعداد للقتال ومواجهة الأعداء، وعاون على أداء هذا المعنى إضافة ِ﴿ فَوْرِ﴾ إلى ضمير الجمع فى قوله – تعالى – :ِ﴿فَوْرِهِمْ﴾ إذ إن هذه الإضافة تشعر بأن الذين يأتون من فورهم هم جماعة قوية وأعداد كثيرة يمكن أن ترهبهم كما تشعر بشدة " اختصاص الفور بهم أى شدة اتصافهم به حتى صار يعرف بأنه فورهم"(١).

وكلمة ِ﴿فَوْرِ﴾ تصور السرعة التى سيأتون بها إليهم وأنهم لا يتوانون .

ووصف الفور بـ ( هَذَا ) وهى للإشارة للقريب وذلك للإشعار بقرب هذا الإتيان وكأنه يحدث فى التو واللحظة ، وأنهم لا يتوانون فى محاربتهم أو قتالهم .

" ورتب – تعالى– على مجموع الصبر والتقوى إتيان العدد من فورهم وإمداده– تعالى– للمؤمنين بأكثر من العدد السابق وعلقه على وجودها ،

---

(١)التحرير والتنوير ج ٤ ص ٧٦ .

**بحيث لا يتأخر نزول الملائكة عن تحليهم بثلاثة أوصاف " (١)(الإيمان – التقوى – الصبر ) .**

**ويلاحظ أن المسند إليه فى قوله – تعالى – :﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ قد جاء بلفظ الربوبية بدلاً من أى لفظ آخر كلفظ الجلالة أو أحد أسمائه – تعالى – مثلاً، وذلك للإشعار بعنـاية الله سبحــانه وتعالى بهم ولطفه ورأفته – عز وجل – بهؤلاء المؤمنين الصابرين المتقين ، وذلك لما في لفظ الربوبية من معنى العناية والاهتمام .**

**وفى إضافة لفظ الربوبية إلى ضميرهم مزيد من التشريف الذى منحه الله سبحانه وتعالى لهم.**

**" وقرأ الجمهور ( مسوَّمين ) بفتح الواو بصيغة اسم المفعول من سومه ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو ( مسوِّمين ) بصيغة اسم الفاعل وهو مشتق من السُّومة بضم السين وهى العلامة مقلوب سمة لا عن أصل سمة وسمه ". (٢)**

**فقراءة الفعل بالبناء للمجهول تشعر بأن هذا التسويم كان من الله – عز وجل – للملائكة فى ذلك اليوم العظيم ، وأنه كان منه –عز وجل – وبإرادته – تعالى– مما يوحى بمزيد عنايته – تعالى–واهتمامه بالمقاتلين المسلمين فى ذلك اليوم الجلل ، وهذه القراءة يناسبها أن يكون معنى التسويم هو**

---

(١) البحر المحيط فى التفسير ج ٣ ص ٣٣٤ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٤ ص ٧٦ .

التعليم أو الإرسال ، وأما قراءة الفعل بالبناء للفاعل فتشعر بأن التسويم كان من الملائكة لأنفسهم ، وأنهم هم الذين قاموا به وهذا يوحى بقدر المؤمنين المقاتلين وارتفاع شأنهم عند الملائكة ، وتُظهر رغبة الملائكة وإرادتهم فى معاونة المسلمين ومساعدتهم فى ذلك اليوم ، وقراءة الفعل بالبناء للمفعول مرة وللفاعل مرة أخرى حقق الإيجاز والاختصار إذ لو لم تكن هاتين القراءتين لقيل ( مسوَّمين ) و ( مسوِّمين ) لكن حينما جاءت هذه القراءة أغنت عن هذا الإطناب .

والتعبير بصيغة التفعل عن التسويم يوحى بشدة هؤلاء الملائكة وقوَّتهم .

ثم يخبرنا السياق بأن إمداد الله – تعالى– للمؤمنين فى غزوة بدر كان منه – تعالى– تبشيرا لهم بنصر الله وطمأنينة لقلوبهم وما النصر إلا من عنده –عز وجل– وهو العزيز الغالب الذى تتسم تصرفاته كلها بالدقة والحكمة .

يقول– تعالى– ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

ويتضح القصر في قوله – تعالى – :( وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ) حيث قصر الإمداد من الله –عز وجل – على إدخال البشرى في قلوب المؤمنين وزرع الطمأنينة في نفوسهم قصرا حقيقيا تحقيقيا طريقه النفي والاستثناء وهذا القصر يوضح رغبة الله الأكيدة في إدخال

السرور والفرح على المؤمنين كما يشعر باهتمام الله سبحانه بالمسلمين وعنايته ورأفته بهم .

وساعد على هذا المعنى وجود لفظ الجلالة إذ يشيع هذا اللفظ في هذا المقام الأنس والبهجة والأمان .

ويلاحظ تقديم الفاعل ( قُلُوبُكُمْ ) على الجار والمجرور ( بِهِ ) وذلك للتعجيل بالمسرة لأن في هذا التقديم إخبارًا بأن الطمأنينة ستكون لقلوبهم هم لا قلوب غيرهم.

كما أن هذا التعبير يوحي بأن القلوب هي العضو المنوط بهذا الأمر من الفرح والسرور مما يشهد بدقة التعبير القرآني .

وإضافة ( القلوب ) إلى ضمير المخاطبين ( هم ) للإشعار بالاختصاص أي أن الطمأنينة التي يهبها الله – سبحانه وتعالى– لهم هي خاصة بهم ولا تتعداهم إلى غيرهم .

ويأتي قصر آخر في قوله – تعالى – :( وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ) إذ قصر النصر على كونه من عند الله قصرا حقيقيا تحقيقيا طريقه النفي والاستثناء وقد بث هذا القصر في قلوب المؤمنين السكينة والطمأنينة إذ أكد لهم هذا القصر أن النصر لا يكون إلا من عند الله فما دامت القلوب عامرة بالإيمان لا تقلق من أي هزيمة أبدا ،وفي نفس الوقت أدخل الروع والقلق في نفوس غير المسلمين إذ تأتيهم الهزيمة من عند الله الجبار القوي المتين لا من قبل أعدائهم المسلمين الذين يرونهم قلة ضعفاء.

وختمت الآية الكريمة بوصف الله بالعزة والحكمة في قوله – تعالى – :( الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ) من باب الاحتراس والتكميل إذ  احترس النظم الكريم بهذين الوصفين عن الفهم الخاطئ من أن ما فعله الله من نصر المؤمنين عن غير عزة وحكمة

وبهذه الآية ينتهي السياق في هذا المقام(إدخال الإيناس في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي قلوب المؤمنين ).

# المبحث الثاني

# وعد الله للمؤمنين بإدخال الرعب والفزع في قلوب الكفار والمشركين .

ويبدأ السياق في الحديث عن غـزوة أحد بشكل واضح في الآيات القادمة وفيها تسلية للمؤمنين وتسرية عنهم ووعدهم بالنصر وإلقاء الهلع والرعب فى نفوس الأعداء

" المشركين ".

يقول – تعالى-: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾

ويلاحظ التعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿سَنُلْقِي﴾ وذلك لاستحضار صورة الإلقاء للرعب فى قلوب الكفار وتصويرها وكأنها ماثلة أمام المؤمنين مشاهدة من أعينهم حتى يكون هذا أدعى لتقوية نفوسهم والتسرية عنهم وبث الثقة فى قلوبهم بأن الله سبحانه و– تعالى–ناصر لهم لا محالة .

وأوثرت ( السين ) بدلاً من ( سوف ) فى التعبير (سَنُلْقِي )وذلك للإشعار بأن إلقاء الرعب هذا فى قلوب الكافرين سيكون من الله قريباً ، إذ إن ( السين ) تستعمل في الإشعار بقرب حدوث الشيء وفى هذا بشرى للمؤمنين بالنصر وإيناس وطمأنة لقلوبهم ، وبالفعل قد ألقى الله الرعب فى قلوبهم يوم أحد فانهزموا من غير سبب من المسلمين ، ولهم إذ ذاك الغلبة والقهر وقد ذهبوا إلى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئا

**قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوا فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم فأمسكوا ".(١)**

**وقرئ الفعل نلقى بالنون ، وقرئ بالياء (٢) فقراءة النون تشعر بالعظمة والكبرياء الإلهى والجبروت وكأن هذه القراءة فى التعبير وسيلة من وسائل إدخال الهيبة والروع فى نفوس الكفرة والمشركين .**

**وقراءة الياء توحى بتأكيد الإلقاء وأنه واقع لا محالة ، كما أن هذه القراءة تجرى على نسق الآيات القرآنية السابقة فى الإسناد إلى ضمير الغائب وكلا القراءتين حققت الإيجاز .**

**" وجاء النظم الكريم بلفظ ( القلب ) وذلك لأن الله – تعالى– يعلم أن القلب عند العرب هو مناط الاحساس والإدراك والتعقل ، فحينما يدخله الفزع يفقد الرشد والصواب ويعم الضعف والانكسار والانهزام " . (٣)**

**وآثر التعبير القرآنى لفظ ( القلوب ) جمعاً وذلك للإشعار بأن الرعب قد دخل قلوب المشركين جميعاً ولم يستثن أحدا منهم وأن الرعب قد ملأ جوانحهم وأحاطهم من الداخل إلى درجة لا يمكن معها الحركة أو التصرف ، أما لو قيل ( قلب ) بالإفراد لأمكن أن يتوهم أن هناك منهم من لم يدخل قلبه**

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٣٧٦ .

(٢) ينظر السابق نفسه – تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣٤ .

(٣) المال بين البخل والإسراف فى القرآن الكريم دراسة بلاغية رسالة دكتوراه د / سحر مصطفى المعنا إشراف أ.د عبد الفتاح لاشين ج ٢.ص ٣٧٣ ، ٣٧٢

ذلك الرعب أو دخل ولم يتمكن منه ، لذا دخل التعبير { قلوب } حرف الظرفية { فى } الذى يشعر بالتمكن والإحاطة من الداخل " كما أن الجمع يشتمل على حرف الباء الشديد ، ثم اللام الشديدة الرخوة ، وقد فصل بينهما بفاصل مما جعل النطق بها أخف من المفرد ( قلب ) الذى تتصل فيه الباء الشديدة باللام الشديدة الرخوة أو المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، كما أن لفظة ( القلب ) المفردة لا يتهيأ فيها ما يجعلها فى النطق من الظهور والرقة والانكشاف بحسن التناسب كلفظ الجمع " . (١)

وإضافة القلوب إلى ( الَّذِينَ كَفَرُوا ) يوحى بضعف هذه القلوب وجبنها وحقارة أصحابها وخستها ، وأكد هذا المعنى التعريف بالموصولية .

" وآثر التعبير القرآنى لفظ ( الرُّعْبَ ) بدلاً من لفظ الخوف وذلك لأن الرعب فوق الخوف كماً ونوعاً وأثراً ويتميز بشدة الفزع " (٢) وهو المراد فى هذا المقام ، كما أن كلمة الرعب تتناسب والشدة والعنف التى تشعر بهما كلمة الإلقاء.

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى– :{ الرُّعْبَ } إذ شبه الرعب بشيء يلقى ويرمى ثم حذف المشبه به وذكر شيئا من لوازمه وهو الإلقاء على سبيل الاستعارة المكنية ، وفى إثبات الإلقاء للرعب تخييل .

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ص ٢٤٢ ط دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان .

(٢) المعجم الوسيط ج ٢ ص ٣٥٢ .

وهذه الاستعارة قد أضفت على الرعب التجسيد والحركة ، كما أن هذا التصوير يشعر بغضب الله سبحانه و- تعالى- على هؤلاء المشركين وكراهيته لهم إذ إن صورة إلقاء الرعب صورة من أبرز خطوطها العنف والشدة والقسوة ، فالرعب شعور يهز الكيان ويجعل المتصف به غير متمالك النفس فاقدا للأعصاب .

وعبر بالفعل الماضى فى قوله – تعالى- :( كَفَرُوا – أَشْرَكُوا ) وذلك للإشعار بعلم الله الواسع الشامل بكل شيء إذ إنه لم يجعل الرعب فى قلوبهم إلا بعد وقوع الكفر والإشراك منهم وقوعاً حقيقيًا وكانت كل أفعالهم وتصرفاتهم نابعة منه حتى لا تكون هناك فرصة لتوهم بأن الله يقع منه أي ظلم لأحد حتى ولو كان هذا الشخص يتوقع منه الكفر أو الإشراك .

وقدم الجار والمجرور فى قوله – تعالى – :﴿قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾على المفعول ﴿الرُّعْبَ﴾ وذلك للاهتمام ببيان المحل الملقى فيه أولاً " القلب ثم يأتى بيان الملقَى ثانياً " الرعب " كما أن هذا التقديم يوحى باختصاص قلوب الكفار بهذا الرعب وأن هذا الرعب لا يتعدى قلوبهم إلى قلوب غيرهم مما يوحي بأن هذا جزاء لهم وخاص بهم وقد جاء هذا عن طريق القصر وهو من قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافيًا إفراداً طريقه التقديم .

والتعريف بالموصولية فى قوله – تعالى – :﴿بِمَا أَشْرَكُوا ﴾ يوحى بحقارة هذا المعتقد وقبحه وعدم قدرته على نجاة صاحبه .

وذكر لفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ فى هذا المقام يوحى بالعظمة والجبروت ويدخل الروع والفزع فى نفوس المشركين والكفرة .

وتنكير ﴿سُلْطَانًا﴾يوحى بالعموم فالله سبحانه و– تعالى– لم ينزل بما أشركوا به أى سلطان لا من بعيد ولا من قريب .

"والمراد بـ ( السلطان) : الحجة . سميت به لوضوحها وإنارتها أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها فى نفسها من قبيل : ولا ترى الضب ينحجر ، أى لا ضب ولا تحجار، فيه إيذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة " . (١)

وإضافة ( المأوى ) إلى ضمير الكفار فى قوله – تعالى – :﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾يشعر بقبح هذا المأوى وخبثه وحقارته إذ إنه مأوى للكفار الذين يتسمون بالحقارة والهوان .

ويؤكد هذا المعنى ذم ذلك المأوى والتقليل من شأنه وتقبيحه فى قوله – تعالى – ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾.

ويلاحظ دقة التعبير القرآنى فى إيثاره لفظة { نار} بدلاً من أى لفظ آخر كـ ( السعير ) مثلاً ، لتصور أن الكفرة قد أكلوا وأصبحوا مبيدين مهلكين ،

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٠ .

وكأن النار قد تكاتفت بكل عناصرها فى تعذيب هؤلاء المشركين الكفرة وإهلاكهم إذ السعير عنصر من عناصر النار وهو غير كاف في تعذيب المشركين والكفرة عند الله –عز وجل – .

ويلاحظ الإيجاز فى قوله – تعالى –:- ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ إذ حذف المخصوص بالذم والتقدير : " وبئس مثوى الظالمين النار " ، وهذا الحذف ينبئ عن جزاء هؤلاء إذ بحذف المخصوص بالذم يتخيل القارئ ما هو الجزاء ويتصور ما يتصور حتى إذا ذكر المحذوف اطمأن القلب وهدأت النفس كما يشعر هذا بكراهية الله القوية لهم وغضبه الشديد عليهم ورغبته الأكيدة ، فى إنهاء الحديث عن هؤلاء حتى ولو كان هذا عن طريق حذف كلمة واحدة

ويلاحظ الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ إذ كان من الممكن أن يقول ( وبئس مثواهم ) لكنه أظهر وقال : ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ للتعليل وللإشعار بأنهم فى إشراكهم ظالمون واضعون للشيء فى غير موضعه .

" وفى جعلها مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز إلى خلودهم فيها ، فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث ، وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ".( ١ )

[١] تفسير أبي السعود ج ١ ص ٤٣١

وواضح ما فى الآية من استقصاء فى جزاء هؤلاء الكفرة من المشركين إذ نص على جزائهم فى الدنيا وهو جعل الرعب فى قلوبهم ، ونص على جزائهم فى الآخرة وهو إعداد النار لهم بكل عناصرها وهذا الاستقصاء لا يدع مجالاً للشك أو الاحتمال بالمغفرة لهؤلاء الكفرة من المشركين والعفو عنهم .

وتأتى الآية اللاحقة لتؤكد صدق وعد الله سبحانه و– تعالى– حينما وعدهم بالنصر فى غزوة بدر إذ تخلقوا بخلق الصبر وتدينوا بالتقوى إذ جعلهم الله يقتلون أعداءهم بعون منه –عز وجل – تيسيراً منه – تعالى– لكنهم حينما دب الضعف فيهم والخلاف بينهم وتخلوا عن التقوى والطاعة حينما رأوا الغنائم فانشغلوا بجمعها ، فشجع ذلك العدو وانهال عليهم بالقتل والضرب ثم عفا عنهم بفضله ومنِّه ورحمته لأنه صاحب فضل عظيم .

يقول – تعالى–: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ﴾ ويلاحظ حذف المقسم به والتقدير والله لقد صدقكم وهذ الحذف يشعر برغبة الله –عز وجل – فى سرعة تذكير المسلمين بوقوع النصر منه لهم فى غزوة بدر وخصوصا أنهم بعد هزيمتهم فى غزوة أُحُد تخيلوا أن الله – تعالى– تخلى عن نصرتهم .

وجاء بالفعل الماضى المصحوب بقد الموطئة للقسم وذلك للإشعار بتحقق صدق الله فى وعده ووقوع النصر وقوعاً فِعْليا.

وتعريف المسند إليه بالعلمية فى قوله – تعالى – :﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يوحى بعظمة الله سبحانه وفخامته وجلاله فى هذا المقام إذ منَّ على المسلمين بتحقق صدق وعده لهم وفى هذا من الشرف والرفعة للمؤمنين ما لا يخفى .

وإضافة الوعد إلى ضمير الله سبحانه و– تعالى– يشعر بعظمة هذا الوعد وفخامته وهذه العظمة تأتى من أنه وعد منجز من قبل الله سبحانه و– تعالى– ذلك الإله العظيم الذى هو فعال لما يريد .

وصدق الوعد يتمثل في " أنهم هزموا المشركين وكان لعلي بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب والزبير وأبى دجانة وعاصم بن أبى الأفلح بلاء عظيما فى ذلك اليوم وهو مذكور فى السير وكان المشركون فى ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس والمسلمون فى سبعمائة رجل " (١).

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ لاستحضار صورة القتل وتذكير المسلمين بذلك المشهد العظيم الذى كانوا فيه يقومون بقتل المشركين والكفار فكأنه مشاهد للعين أمامهم .

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٣٧٨ .

قرأ جمهور القراء ( تحسونهم ) من الفعل الثلاثي ،و(قرأ عبيد بن عمير ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ رباعيا من الإحساس ) (١).

فقراءة الجمهور توحى بالفشل والقتل والموت ، وقراءة عبيد بن عمير تضيف إلى القتل ذهاب إحساس الشجاعة وموته وشعورهم بالجبن والضعف وتمنى الموت أثناء المعركة .

وهذه القراءة جعلت المسلمين لم يتوقف مجهودهم على قتل الكفار فقط بل حاربوهم حربا نفسية فقد استطاعوا صرع شعور الشجاعة والإقدام لدى الكفار والمشركين وإحلال شعور التخاذل ، والجبن مكانه ، وبهذا يكون قد حققت القراءتان الإيجاز فلو لم تكن هاتان القراءتان لقيل إذا ( تقتلونهم وتذهبون إحساسهم بالشجاعة بقتلكم لهم) لكن حينما جاءت هاتان القراءتان أغنت عن ذلك الإطناب الذى لا يفيد السياق .

ووصل بين الجمل الثلاث – ( فشلتم – تنازعتم – عصيتم ) وذلك لما بينهن من التوسط بين الكمالين ، كما أن تلك الجمل تشترك فى تصوير ما أصبح عليه المسلمون يوم غزوة أُحُد بعد انتصارهم ورؤيتهم للغنائم من الفشل والتنازع والعصيان .

والتعبير بالأفعال الماضية فى الجمل السابقة للتأكيد على أن هذه الأفعال قد وقعت منهم بالفعل وتحققت تحققاً لا مراء فيه

---

(١)السابق ج ٣ ص ٣٧٩ .

ونلحظ فى الآية ألفاظا قد استعملها النظم القرآنى ، فجاءت بوزنها وجرسها وبنائها متسقة مع المعنى ومؤداه وذلك فى قوله – تعالى– :( تحسونهم – فشلتم – تنازعتم – عصيتم ).

ومن هذه الألفاظ أيضا لفظ ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ فلو تأملناها وهى هنا بمعنى قتل المؤمنين لأعدائهم المشركين فى أول الحرب بأمر الله لرأينا أن فيها حرف ( الحاء ) وهو حرف حلقى مهموس ، ثم جاء بعده حرف السين مكرراً وهو صوت مهموس ، احتكاكى ، صفيرى .

وقد ساعد هذا على تصوير الحذر والحيطة التى كان عليها المؤمنون أثناء قتالهم لهؤلاء المشركين فى تلك الغزوة إذ كانوا يرسمون خططهم ويتفقون عليها فيما بينهم فى سرية وهدوء تامين .

والألفاظ (فَشِلْتُمْ – تَنَازَعْتُمْ – عَصَيْتُمْ ) تصور مدى حماقة هؤلاء وفساد عقولهم وتكشف عن سوء صنيعهم إذ عصوا أمر رسولهم الكريم ، كما أن الألفاظ بصيغتها هذه قد صورت الحالة النفسية التى كان عليها المتحدث عنهم أثناء وقوع ذلك منهم ، ومدى اضطرابهم وعدم ثباتهم وتماسكهم .

" وبذلك نرى أن ألفاظ القرآن الكريم قد صارت بطريقة استعمالها ووجه تراكيبها كأنها فوق اللغة ، ولو تدبرت ألفاظ القرآن الكريم فى نظامها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتراكيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من الفصاحة ، فيهيئ ويساند بعضها بعضاً ولن نجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوية لها فى النظم ، كما أن أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد مهدت لها طريقاً فى اللسان واكتنفتها بضروب من

النغم حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقَّه وجاءت متمكنة فى موضعها . " (١)

ويأتى الإيجاز فى قوله – تعالى – :﴿إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ .

إذ حذف جواب الشرط والتقدير " منعكم نصره وقيل: هو امتحنكم ، وقيل: هو انقسمتم إلى قسمين كما ينبئ عنه قوله – تعالى – :﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ﴾وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة " . (٢)

وبلاغة الحذف هنا تتمثل في ترك النفس لتتصور وتتخيل ما يمكن أن يكون بعد عصيان المؤمنين وتنازعهم فى الأمر بعد أن منَّ الله عليهم وأراهم ما يحبون )

وهذا الحذف يشعر بغضب الله –عز وجل –على هؤلاء الذين انشغلوا بجمع الغنائم ولم يهتموا بعدوهم أو يلقوا له بالاً ورغبته فى إنهاء الحديث معهم إذ إنهم لا يستحقون هذا الشرف

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٢) تفسير أبى السعود ج١ ص ٤٣٢ .

( محادثة الله ) ولا يستحقون ذلك الفضل .

كما يلاحظ الحذف مرة أخرى فى قوله – تعالى – :﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ إذ حذف المضاف والتقدير : وتنازعتم فى امتثال الأمر وحذف المضاف هنا للاختصار فى الكلام حيث أنه معلوم من سياق الكلام .

وقوله – تعالى – :﴿مَا تُحِبُّونَ ﴾ كناية عن الظفر والغنيمة وانهزام العدو ، وهذه الكناية كناية عن صفة ، والكناية تصور إلى أى مدى اهتمام المقاتلين المسلمين فى تلك الغزوة وانشغالهم بالغنائم وانكبابهم على جمعها وفرحتهم بالفوز والنصر الذى جعلهم ينسون عدوهم وما يضمر لهم من الحقد وتحين الفرص والإضرار بهم .

وعدل عن ذكر الغنيمة باسمها إلى الموصول تنبيها على أنهم عجلوا في طلب المال المحبوب والكلام على هذا تمهيد لبساط المعذرة إذ كان فشلهم وتنازعهم وعيانهم عن سبب من أغراض الحرب وهو المعبر عنه بـ ( إحدى الحسنيين ) ولم يكن ذلك عن جبن ولاعن ضعف إيمان أو قصد خذلان المسلمين وكله تمهيد لما يأتي من قوله – تعالى – :( ولقد عفا عنكم ) " (١)

[1] التحرير والتنوير ج ٤ ص ٨٥

ويأتي الإطناب ليقوى المعنى ويؤكده وذلك عن طريق الاعتراض فى قوله – تعالى – : ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ ﴾ ، بين المعطوف والمعطوف عليه الشرط وجوابه وقد أدى هذا الاعتراض إلى تقرير المعنى وتثبيته فى النفس وهو أن عصيانهم وعدم استحقاقهم النصر مرة ثانية بسبب انقسامهم وتنازعهم وفشلهم .

ويقوي هذا المعنى التقسيم البديع فى الآية إذ قسم المسلمون فى غزوة أُحُد إلى أناس يحبون الدنيا ويعشقونها ويعملون من أجلها ، وأناس يحبون الآخرة ويعملون لها ، وهذا التقسيم أوقف المقاتلين فى تلك الغزوة أمام أنفسهم وكشف لهم حقيقتها ووضح لهم صورتهم التى يراهم عليها سبحانه و تعالى .

ويتضح الطباق بين ( الدنيا والآخرة ) وهذا الطباق أوضح المعنى وأبرزه وهو الهوة الشديدة والمفارقة البعيدة بين الأمرين فالدنيا شيء حقير تافه وما هى إلا متعة زائلة منتهية ، وأما الآخرة فشيء عظيم له قيمته ومتعة باقية غير منقطعة .

وقدم إرادة الدنيا على إرادة الآخرة للدلالة على زوال الدنيا وفنائها وشرف الآخرة وبقائها .

ووصل بين هاتين الجملتين لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى كما أنهما اشتركا في تصوير أحوال المقاتلين المختلفة .

وحرف العطف ( ثم ) يومئ إلى أن انصرافهم عن المعركة كان متراخياً وليس فورياً عقب النصر وإنما كان بعد فترة من الزمن وكأنهم اطمأنوا وسلموا بأن عدوهم قد انتهت شوكته فى تلك الغزوة مما يوحى بصدق نيتهم فى القتال ، وعدم عجلتهم فى جمع هذه الغنائم لكن خطأهم يتمثل فى سوء تصرفهم وقبحه إذ إنهم لم ينتظروا إلى نهاية المعركة نهاية حاسمة تنبئ عن انتهاء العدو وضعف شوكته .

والتعبير بالفعل المضارع يوحى بتجدد الابتلاء من الله سبحانه و– تعالى– لهؤلاء المسلمين وأنه لم يكن أول أو آخر ابتلاء لهم حتى يعلمهم الصبر ويزرع الجلد فى نفوسهم .

وأما التعبير بالفعلين الماضيين ( صرف – عفا ) وذلك للإشعار بتحقق الصرف والعفو منه – تعالى– ووقوعهما وقوعاً فعلياً وأنهما كتبا عليهم منذ الأزل.

ويلاحظ حذف المسند إليه فى قوله – تعالى – :( لِيَبْتَلِيَكُمْ – صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ – عَفَا عَنْكُمْ) وذلك لكون المسند لا يصلح إلا له حقيقة أو ادعاء . (١) فالصرف للمسلمين وابتلاؤهم والعفو عنهم أفعال لا يمكن حصولها إلا من الله – عز وجل – حقيقة إذ هو القادر عليها والمريد لها وحده –تعالى–.

وآثر التعبير القرآنى لفظ العفو فى قوله – تعالى – :{ عَفَا } بدلاً من لفظ الصفح وذلك لأن العفو يقتضى إسقاط اللوم والذم ولا يقتضى إيجاب

---

(١) معانى التراكيب أ.د .عبد الفتاح لاشين ج ١ ص ١١٠ الدار الجامعية .

الثواب ، ولهذا يستعمل فى جانب العبد فيقال : عفا زيد عن عمرو ، وأما الصفح فهو : التجاوز عن الذنب من قولك صفحت الورقة إذا تجاوزتها ، وقيل هو ترك مؤاخذة الذنب بالذنب ، ولهذا لا يستعمل فى جانب الله – تعالى -إلا أن العفو والصفح لما تقارب معناهما تداخلاً واستعمالاً فى صفاته – تعالى- صح استعمال الصفح في جانبه – عز وجل – فمن أسمائه العفوّ والصفوح . (١)

وكلمة ( عفا ) وردت فى القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة منها سبع مرات بهذه الصيغة ( الماضية ) والباقى بصيغ أخرى .

وقوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾" تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والإحسان لا بطريق الوجوب عليه – تعالى – أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل فى جميع الأحوال . " (٢)

وذكر المسند إليه فى قوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك للإشعار بعظمة صاحب الفضل وعظمة المتفضل عليهَ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) ينظر لسان العرب – تاج العروس – الصحاح للجوهرى – مادة عفو .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٢ .

وعظمتهم تأتى من اهتمام الله سبحانه و- تعالى- بأن يعطيهم فضلاً .

وتنكير ( فَضْلٍ ) يوحي بتفخيم ذلك الفضل وتعظيمه والإشعار بكثرته فعظمته وفخامته تأتيان من أنه من قبل العظيم الفخم المتعال ،وكثرته تأتي من أنه من قبل الكريم الجوَّاد صاحب المنن وواهب النعم .

ويتضح الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

إذ كان من الممكن أن يقال : والله ذو فضل عليكم بالإضمار لكنه أظهر تشريفاً لمن اتصفوا بصفة الإيمان وتعظيماً لشأنهم وتكريماً لهم .

كما أن فى هذا الإظهار تذكيراً لهم بإيمانهم علهم بهذا يبتعدون عن المعاصي ويتجهون إلى الطاعة .

ويلاحظ أن سياق الآية قد جرى على طريق الخطاب ثم التفت من هذا الطريق إلى طريق الغائب عن طريق الاسم الظاهر ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾

فالخطاب يشعر بلوم الله – تعالى- الشديد وعتابه الحاد لهؤلاء المقاتلين فى غزوة أُحُد وتوبيخه لهم وإنكاره عليهم ما فعلوه من تكالبهم على جمع الغنائم والأموال وهذا العتاب وذلك اللوم لا يكون أوقع فى النفس إلا عن طريق الخطاب ، وحينما أراد – تعالى- أن يعمق شعورهم بالأسف والحسرة عبر بطريق الغائب ( الاسم الظاهر ) إذ يشعر هذا الطريق بتغيب المعبر عنهم عن ساحة الحضور وكأنهم غير مؤمنين ولا بد من أن يفعلوا قصارى جهدهم حتى يحصلوا على درجة الإيمان التى يستحقون بها فضل الله العظيم وشرف رضاه عنهم .

ويحتمل أن يكون المراد من التعبير بطريق الظاهر ( المؤمنين ) الإشعار بمعنى الإيناس ويكون الله – سبحانه وتعالى- قد أراد في آخر الآية أن يطيب خاطرهم ويزيل الوحشة التي طالما كانت في قلوبهم بسبب خطابهم طوال الآية بلهجة حادة شديدة .

وفاصلة الآية ( مؤمنين ) من النوع المطرف إذا اتفقت مع الفاصلة فى الآية التى قبلهــا

( ظالمين ) فى حرف الروى النون واختلفت فى الوزن وكأن اتفاق الفاصلتين فى حرف الروى يشير إلى اتفاقهما فى أن كلاً منهما له جزاء مناسب ينتظره واختلافهما فى الوزن يشير إلى اختلافهما فى نوع الجزاء فمأوى الظالمين النار وجزاء المؤمنين الجنة .

ويلاحظ تشابه الأطراف فى الآية إذ ختمت بما ناسب أولها فصدق الوعد تفضل منه – تعالى – وامتنان على المؤمنين ، كذلك رُؤيَته للمؤمنين ما يحبون وهو الظفر بأعدائهم وعفوه عنهم إحسان وتفضل منه – تعالى- ، فكان مناسباً بعد ذلك أن يختم الآية بقوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حيث تفضل عليهم بصدق الوعد.

وتأتى الآية اللاحقة لتذكرهم بالوقت الذى انصرفوا فيه وتخلوا عن الرسول ﷺ وفَرُّوا منه فى الوقت الذى كان يدعوهم فيه إليه ولذلك أعقب الله - سبحانه وتعالى- غمهم بغم موصولاً بالغم السابق وهو اهتمامهم بالقتل والجرح والظفر بالمشركين لكيلا يحزنوا على ما أصابهم من ضر أو نفع ، ثم تختم الآية الكريمة بالإخبار بأن الله سبحانه و- تعالى- خبير بكل أعمالهم مطلع عليها .

يقول – تعالى- ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾ .

ويلاحظ التعبير بالفعل المضارع في قوله – تعالى – : ( إِذْ تُصْعِدُونَ ) وذلك لاستحضار صورة الصعود وتصويرها ماثلة أمامهم عل هذا يكون أدعى لتذكرهم ذلك المشهد .

قرأ الجمهور ( تُصعِدون ) ، وقرئ ( تَصعَدون) من الثلاثى أى فى الجبل ، وقرئ ( تُصعِّدون ) من التفعل بطرح إحدى التاءين ، وقرئ( يصعدون ) بالياء . (١)

فالقراءة الأولى توحى بأنهم كانوا يذهبون ويبعدون بذهابهم فى الأرض .

(١) ينظر أبى السعود ج ١ ص ٤٣٢ والبحر المحيط ج٣ ص ٣٨٤ .

**والقراءة الثانية توحى بأن صعودهم كان من الصعود أى الارتفاع وأنهم كانوا يصعدون الجبل .**

**وأما القراءة الثالثة فتشعر بالمبالغة فى الذهاب والبعد في الأرض .**

**وأما القراءة الرابعة ففيها التفات من الخطاب فى الآية السابقة إلى الغيبة فى هذه الآية وفي هذا الالتفات تغييب لهؤلاء الفارين الهاربين وكأن الله سبحانه و- تعالى- يريد عدم تواجدهم فى ساحة الخطاب كراهية لما فعلوه .**

**والالتفات يحقق إمتاع المتلقى وجذب انتباهه بتلك النتوءات أو التحولات التى لا يتوقعها فى نسق التعبير . (١)**

**ويقول الزمخشرى : " إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد " (٢)**

**ومجموع هذه القراءات لازم للمعنى إذ لو لم تكن هذه القراءات لقيل فى الآية نفسها ( إذ تصعدون بذهابكم فى الأرض أو تصعدون فى الجبل أو يبالغ أحدكم بالذهاب فى الأرض أو فريق منكم يصعدون فى الأرض، لأن**

---

(١) أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية للدكتور حسن طبل ص ٢٦ ط دار الفكر العربى للطباعة والنشر ت.ط ١٩٩٨ م– ١٤١٨ هـ

(٢)الكشاف للإمام محمود بن عمر الزمخشرى ج ١ ص ٤٣٢ ط دار الكتاب العربى.

**السياق يحتمل هذه المعانى كلها ، وهذه القراءات تشعر بأن المقاتلين في تلك الغزوة قد تصرفوا بطرق مختلفة فمنهم من تصعد بذهابه فى الأرض ومنهم من تصعد فى الجبل ومنهم من بالغ بالذهاب فى الأرض فبمجيئ هذه القراءات تحقق الإيجاز وأغنت عن الإطناب المخل الذي لا يليق بالنسق القرآني .**

**والفرق بين الإصعاد والصعود: هو أن الإصعاد في مستوى الارض،( أفقيا ) والصعود في الارتفاع (رأسيا ) يقال : أصعدنا من الكوفة إلى خراسان وصعدنا في الدرجة والسلم والجبل.(١)**

**وقوله – تعالى – : ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾ كناية عن عدم رجوعهم إلى بعض وعدم التفاتهم إلى أى أحد منهم ، وهذه الكناية تصور عدم اهتمامهم بغيرهم وتوحى بالمبالغة فى انشغالهم بأنفسهم وأنانيتهم المفرطة.**

**وقرئ ( يلوون ) كـ( يصعدون ) بالإسناد إلى ضمير الغيبة . (٢)**

---

(٢)الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ضبطه وحققه حسام الدين القدسي ص ٣٦ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

(٢) ينظر تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٢.

وفى هذه القراءة تغييب لهم مرة أخرى من الله – عز وجل – غضباً من أفعالهم ، وصرف " السياق من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم."(١)

وتنكير ﴿أَحَدٍ﴾ يشعر بالعموم إذ أنهم كان الواحد منهم لا يهتم إلا بنفسه ولا يهتم بأى أحد غيره ولم يكن يشغلهم إلا الفرار والهروب فقط من تلك المعركة . وقيل المراد النبى ﷺ، وعبر بأحد عنه تعظيماً له وصوناً لاسمه أن يذكر عند ذهابهم عنه . (٢)

فإن كان المراد بـ ﴿أَحَدٍ﴾ أى أحد فهناك حذف والتقدير ( لا تلوون على أحد منكم ) وهذا الحذف للإيجاز والاختصار كما أن هذا الحذف يشعر بعدم رغبة الله سبحانه و– تعالى– فى إطالة الحديث مع أو عن هؤلاء .

وقرأ الجمهور ( أحد ) بفتح الهمزة والحاء وقرأه حميد بن قيس أحد بضم الحاء والهمزة وهو الجبل . (٣)

فقراءة الجمهور ( أحد ) تؤيد قراءة ( تُصعِدون ) التى هى بمعنى الذهاب فى الأرض إذ بذهابهم هذا لا يلتفتون لأي أحد . وقراءة حميد بن قيس ( أحد ) تؤيد قراءة ( تصعّدون ) تتسلقون .

---

(١) معانى التراكيب ج ١ ص ١٩٤ .
(٣) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٣٨٦ .
(٣) ينظر البحر المحيط ج١ ص ٣٨٦ .

وعلى أى حال فكلا القراءتين يحتاج إليهما السياق وكل منهما يؤدى معنى مفيدا ، فالقراءة الأولى تؤكد ما أشير إليه من عدم اهتمامهم بأى أحد غير أنفسهم .

والقراءة الثانية تشعر بالمبالغة فى فرارهم وهروبهم وكأنهم قد نووا ألا يعودوا إلى ذلك الجبل أبداً .

والتعبير بقوله – تعالى – :﴿وَالرَّسُولُ﴾ وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة " للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه إشباعاً فى توبيخ المنهزمين." (١)

والتعبير بالفعل المضارع المشتمل على حرف المد ( الواو ) ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ يوحى بأن الرسول ﷺ كانت دعوته ونداؤه لهم كان مستَّمراً ولم ينقطع في أثناء فرارهم وأنه قد بذل جهداً كبيراً فى محاولة إقناعهم فى العودة والرجوع.

والتعبير ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ كناية عن ثبات الرسول ﷺ إذ وقف ثابتاً يدعوهم إلى العودة إلى القتال وأخذ حقوقهم وثأرهم من مقاتليهم فى الوقت الذى فر معظمهم وهرب من ساحة القتال ، وهذه الكناية تصور شجاعة الرسولﷺ وإقدامه وتؤكد اقتناعه بحقه فى النصر وثقته في وقوف الله – عز وجل – بجانبه .

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣٣٢ .

وأوثرت ( الفاء) فى عطف ( أثابكم ) على ( صرفكم ) وذلك للإشعار بسرعة الإثابة وفوريتها عقب الصرف أى أنه لم تكن هناك مهلة بين الصرف والإثابة وكأنهم حينما صُرفوا إلى جمع الغنائم فوجئوا بإثابتهم بذلك الغم ودُهُموا فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا .

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :( أثابكم ) حيث شبه العقوبة بالإثابة بجامع أن كلا منهما جزاء تنزيلاً للتضاد منزلة التناسب ثم استعيرت الإثابة للعقوبة ثم اشتق من الثواب أثاب بمعنى عاقب على سبيل الاستعارة التصريحية التهكمية التبعية فى الفعل والقرينة حالية .

وهذه الاستعارة تبرز اللوم الذى كان يوجهه الله – تعالى– لهؤلاء وأنه كان – عز وجل –يوبخهم توبيخاً مقزعاً ويعزرهم تعزيراً شديداً يجعلهم يندمون ويعترفون بخطئهم ويتوبون .

" وقد قيل أن الضمير فى قوله – تعالى – :﴿فَأَثَابَكُمْ ﴾(١) لله – عز وجل – وقيل للرسول ﷺ أى واساكم بالاغتمام فاغتَّم بما نزل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يثريكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيساً عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح " . (٢)

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج ٣ ص ٣٨٦ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٣ .

وعلى هذا يكون عطف (أثابكم ) على ( يدعوكم ) لا على ( صرفكم ) وبهذا تكون الإثابة من الرسولﷺ إثابة فورية عقب دعوته لهم وعدم استجابتهم ، وبهذا يمكن أن يكون التشبيه للمواساة بالإثابة وليس للعقوبة ، وهذا يشعر برأفة قلب رسول الله ﷺ وحنوه الشديد ورهافة حسه ﷺ إذ شاطرهم الأحزان والألم على الرغم من أن هذا كان نتيجة لخطئهم وتسرعهم مما يؤكد تعاطف الرسول ﷺ معهم .

وكون الضمير لله –عز وجل –أظهر وأوقع لأن المسند إليه فى الأفعال السابقة هو الله –تعالى– وذلك فى قوله – تعالى – :﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ ﴾

وقوله – تعالى – :﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ .

والتعبير بالفعل الماضى فى ( أثابكم ) يوحى بتحقق هذه الإثابة ووقوعها وقوعاً فعليا وأن الغم قد أصابهم بل سيطر عليهم وأحاط بهم من كل جانب .

وتنكير ( غم ) فى الموضعين للتكثير ، إذ الغم الذى أصابهم كان كثيراً كثرة لا تتصور ، والغم أيضا الذى يقابله كان كثيراً كثرة لا تتخيل فاجتمع عليهم الغمان في وقت واحد من الاغتمام" بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول وفوت الغنيمة" (١)مما أثر على حالتهم النفسية وبدلها من حالة فرح إلى حالة حزن وضيق.

---

(١) السابق نفسه

" واختلفوا في ترتيب هذين الغمين فقال قتادة ومجاهد : الغم الأول أن سمعوا : ألا إن محمداً قد قتل، والثاني ، القتل والجراح الواقعة فيهم، وقال الربيع وقتادة أيضاً بعكس هذا الترتيب ،وقال السدي ومجاهد أيضاً وغيرهما : بل الغم الأول هو قتلهم وجراحهم وكلما جرى في ذلك المأزق ، والغم الثاني هو إشراف أبي سفيان على النبي ومن كان معه ، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى قوم من أصحابه قد علوا صخرة في سفح الجبل فمشى نحوهم فأهوى إليه رجل بسهم ليرميه ، فقال : أنا رسول الله ، ففرحوا بذلك ، وفرح هو عليه السلام إذ رأى من أصحابه الامتناع ، ثم أخذوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر ، وعلى من مات من أصحابهم فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو سفيان من علو في خيل كثيرة ، فنسوا ما نزل بهم أولاً، وأهمهم أمر أُبي سفيان ، فقال رسول الله ﷺ: ليس لهم أن يعلونا ، اللهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد ، ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة ، وأغنى هنالك عمر بن الخطاب حتى أنزلوهم . " (١)

وبين قوله – تعالى – :{ فاتكم } و { أصابكم } طباق أبرزا المعنى وأوضحاه وهو عدم الحزن على نفع فات أو ضر آت ، كما يوضح الفرق الشديد والهوة البعيدة بين النفع والضر ومع هذا فيجب استواؤهما عند المؤمن .

---

[١] المحرر الوجيز ج ١ ص٢٣٥

وقوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تذييل مكرر للمعنى ومؤكد له وهو علم الله سبحانه و– تعالى– بكل ما فعلوه وصدر منهم .

والتعريف بلفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ ﴾ لإدخال الإيناس والطمأنينة فى قلوب من لم يقوموا بفعلهم منهم لأن هناك بعضا منهم لم يقم بهذا الصنيع وإن كانوا قلة ، وإدخال الروع والوحشة فى قلوب من قاموا بذلك الصنيع .

والمدود فى الآية كـ ( الواو – الألف – الياء) تصور إلى أى مدى كان هؤلاء فارين هاربين غير عابئين بغيرهم وإلى أى مدى كان رسول الله ﷺ حريصا على عودتهم للقتال ، وقد استعمل كل ما فى وسعه وبذل كل طاقته فى إقناعهم ولم يقتنعوا .

ويكمل الله سبحانه و– تعالى– خطابه لهؤلاء ويذكرهم بفضله عليهم حينما منَّ عليهم بالأمن وجاد عليهم بالنعاس لكن هذا النعاس كان لبعضهم وبعضهم الآخر قد أهمتهم أنفسهم وتحاوروا فيما بينهم معترضين إذ يقولوا ظانين بالله ظن الجاهلية متسائلين ليس لنا فى هذا الأمر شيء ولو كنا فى بيوتنا ما قتلنا فقد سمع الله مقولتهم هذه ورد عليهم بأنهم لو كتب عليهم القتال ولم يخرجوا لجاءهم القتل فى أماكن نومهم ، ثم يعلل الله سبحانه و– تعالى– كتابة القتل عليهم بأنه لتطهير قلوبهم مما يخامرها من الريب والشك واختبار قوة إيمانهم ، وأن الله – سبحانه وتعالى – عالم بما تخفيه ضمائرهم وقد أخبرنا بهذا في الآية التالية :يقول – تعالى –:

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) ﴾.

وصدرت الآية الكريمة بحرف العطف ﴿ ثُمَّ ﴾ وذلك للإشعار بأنه كانت هناك فترة بين إصابتهم بالغم وبين نزول الأمن عليهم ، فالأمن جاءهم بعد إمهال وتراخى .

" والتصريح بتأخر الإنزال عنه مع دلالة ثم عليه و على تراخيه عنه لزيادة البيان وتذكير بعظم النعمة كما في قوله – تعالى – :( ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية"(١)

وتنكير﴿أَمَنَةً﴾ يوحى بعظم هذا الأمن وتفخيمه ويؤكد هذا المعنى التعبير ب(أنزل)المسند إلى الله – تعالى– إذ لا أعظم منزلة من الأمن الذي ينزله الله على أحد من عباده .

---

(١) تفسير أبي السعود ج١ ص٤٣٤ .

" ويدخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئا أصلاً من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغيره من أصناف المكاره فلا يرى كلمة أجمع من هذه ." (١)

والفرق بين ( الأمنة ) و ( الأمن ) الأمنة تكون مع بقاء أسباب الخوف ، والأمن يكون مع زوال أسبابه لذا عبر هنا بـ (الأمنة ) لأن أسباب الخوف كلها لم تكن قد زالت مما يشهد بدقة التعبير القرآنى .

"وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالإزالة لأنه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متأهبين للقتال فأنزل الله - تعالى- عليهم الأمنة فأخذهم النعاس." (٢)

وتنكير ﴿ نُعَاسًا﴾ يوحى بعظم هذا النعاس وارتفاع منزلته إذ كان وسيلة من وسائل تخفيف غمهم وحزنهم فأول نومة فى المصائب تخفف من حدتها كمصائب الموت وغيرها .

والنعاس : النوم الخفيف أو أول النوم وهو يزيل التعب ولا يغيب صاحبه فلذلك كانوا في أمنة ولم يكونوا في أمن إذ لو ناموا نوماً ثقيلاً عميقاً لأُخذوا بغتة دون أن يشعروا .

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٩٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ج١ ص٤٣٤ .

وتقديم الظرف ﴿بَعْدِ الْغَمِّ ﴾على المفعول ﴿أَمَنَةً﴾ - ﴿نُعَاسًا﴾ اهتماماً واعتناء بأمر الغم الذى أصابهم والحديث عنه أولاً إذ هو الأمر الذى كان يشغلهم فى ذلك الوقت كما أن فى هذا التقديم تشويقاً إلى المؤخر فتذهب النفس فى تصوره كل مذهب وتتخيل ما تتخيل حتى يأتى المؤخر فتطمئن النفس به وتهدأ .

وكان أيضا مقتضى الظاهر أن يقدم ( النعاس) ويؤخر ( أمنة ) لأن ( أمنة ) بمنزلة الصفة أو المفعول لأجله فحقه التقديم على المفعول كما جاء فى آية الأنفال :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾(١) ولكنه قدم ( الأمنة )هنا تشريفاً لشأنها لأنها جعلت كالمُنَزَّل من الله لنصرهم فهو كالسكينة .

وإيثار حرف الجر (على ) فى التعبير ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يوحى باستعلاء النعاس عليهم واحتوائه لهم وغلبته عليهم ، وأنه كان يغطيهم وقد استسلموا له على الفور، ويؤكد هذا المعنى وصف النعاس بقوله - تعالى - : ( يغشى ) الذي يشعر بأن النعاس وكأنه يحيطهم من كل جانب .

واختلفوا فى وقت النعاس " فقال الجمهور : حين ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب فقال رسول الله ﷺ وكان من المتحيزين إليه " اذهب فانظر إلى القوم فإن كانوا جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة وإن كانوا على خيلهم فهم

---

(١) سورة الأنفال : آية ١١ .

عائدون إلى المدينة فاتقوا الله واصبروا ووطنهم على القتال ، فمضى عليَّ ثم رجع فأخبر أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أثقالهم عجالاً فأمن المؤمنون المصدقون رسول الله ﷺ وألقى الله عليهم النعاس وبقى المنافقون الذين فى قلوبهم مرض لا يصدقون بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤم المدينة فلم يقع على أحد منهم نوم وإنما كان همهم فى أحوالهم الدنيوية، وثبت فى البخارى من حديث أبى طلحة قال : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فجعل يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه وفى طريق رفعت رأسى فجعلت ما أرى أحداً من القوم إلا وهو يميل تحت جحفته وهذا يدل على أنهم غشيهم النعاس وهم فى المصاف " . (١)

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿يَغْشَى﴾لاستحضار صورة التغشية تذكيراً لهم بهذه المنة وأنها كانت فى وقت كان صعباً شديداً عليهم مما يؤكد رحمته – تعالى – بعباده .

وتنكير ﴿طَائِفَةً﴾ يوحى بضعف قوة هذه الطائفة وشدة إعيائها وأنها كانت مجهدة كما يصور مدى استسلامها واستكانتها .

ويلاحظ الإطناب فى قوله – تعالى – :﴿مِنْكُمْ﴾ وهذا الإطناب عن طريق الاحتراس والتكميل إذ احترس بهذا القول عن أن يفهم أحد أن إنزال الأمنة

---

(١) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٢٨٩ ، ٣٩٠ .

والنعاس كان على غيرهم وقد قطع هذا الاحتراس الشك فى هذا الأمر ومنع التوهم .

وأما تنكير { طائفة } فى قوله – تعالى – :﴿طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾فيوحى بهوان هذه الطائفة ،وقلة وزنها عند الله ،وضعف إيمانها ،وعدم ثقتها فى النصر .

والتعبير بالفعل الماضى المصحوب بقد ( قد أهمتهم ) يشعر بتمكن الهم منهم ووقوعه من نفوسهم لهم وسيطرته عليهم وحدوث الوحشة لهم وامتلاء قلوبهم بها ، هذا على العكس من الطائفة السابقة التي منّ الله عليها بإدخال الأنس فى قلوبهم بإنزال النعاس عليهم .

وآثر التعبير القرآنى لفظ الطائفة بدلاً من لفظ آخر كالجماعة مثلاً " وذلك لأن الطائفة فى الأصل: الجماعة التى من شأنها الطواف فى البلاد للسفر ويجوز أن يكون أصلها الجماعة التى تستوى بها حلقة يطاف عليها ثم كثر ذلك حتى سمى كل جماعة طائفة ، والطائفة فى الشريعة قد تكون اسما لواحد، قال الله –عز وجل – (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) ولا خلاف فى أن اثنين إذا اقتتلا كان حكمها هذا الحكم ، وروى فى قوله – تعالى – (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) أنه أراد واحداً ، وقيل يجوز قبول الواحد بدلالة قوله – تعالى – :﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ

فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ إلى أن قال ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ أى ليحذروا فأوجب العمل فى خبر الطائفة ، وقد تكون الطائفة واحداً " (١) .

والمقصود من الطائفة فى الآية : هم الجماعة الذين اجتمعوا وتحالفوا من أجل القتال وهؤلاء المقاتلون كانوا طوافين دائمي السفر من أجل القتال إذن فقد ناسب لفظ الطائفة المعنى المراد مما يشهد بدقة التعبير القرآني .

" ويلاحظ التعبير بجمع القلة ( أنفس ) بدلاً من جمع الكثرة ( نفوس ) مع أنهم طائفة ، والطائفة عددها كثير فيناسبها جمع الكثرة وذلك تحقيراً لهذه الأنفس وتقليلاً لوجودها ودورها فى صنع الحياة الفاضلة وتهوينا من أمر عصيانها وتمردها فإنها لن تضر الله شيئا فكان جمع القلة هو الذى يحقق الغاية من إظهار كثرتهم العددية بمظهر القلة والحقارة ." (٢) فالإنسان يكثر بآثاره الصالحة ويهون أمره ويقل شأنه حين يصير وجوده عقما وحياته فراغاً يلعب فيها الشيطان .

وإضافة الأنفس ) إلى ضمير هذه الطائفة يؤكد المعنى السابق من الحقارة والهوان إذ أن هذه النفوس نفوسهم هم لا نفوس غيرهم .

---

(١) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص ٢٣٠ .

(٢) الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ للدكتور / محمد الأمين الخضرى ص ١٤٨ ط ١ - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

وفصل بين جملة ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ ﴾ وجملة ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ وذلك لأن الجملة الأولى أثارت سؤالاً تقديره : كيف أهمتهم أنفسهم ؟ فقيل : يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . فكانت الجملة الثانية بمثابة الجواب عليه ، فالفصل لشبه كمال الاتصال .

" وبلاغة هذا الضرب تكمن فى أن الجملة الأولى تثير فى النفس خواطر وهواتف فتأتى الثانية مجيبة عن هذه الخوالج وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة فى الجملة الأولى ، وهكذا يتوالد الكلام وتتناسل الجمل ، ثم إن فى طى هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ، ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه ، ولو ذهبت تبسط ماحقه البسط لرأيت وراء كل جملة من هاتيك الضروب جملة قد تطول أو تقصر ولكنها أضمرت فى تلك الجملة واكتفى فى الإبانة عنها باللمحة والإيماءة السريعة التى انعكست فى تحريك السامع واستثارة حسه " . (١)

والتعبير بلفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿بِاللَّهِ﴾ وذلك للإشعار بالعظمة والفخامة ولإظهار الجلال الإلهى .

وإضافة (غير) إلى (الحق) توحى بخبث نيتهم وقبح تصرفهم إلى درجة أصبحوا معها أصحاب باطل وضلال .

---

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية د / محمد محمد أبو موسى ص ٣١٢ مكتبة وهبة الطبعة الثانية – ١٤٠٨ هـ .

وأما إضافة الظن إلى الجاهلية فتصور مدى التخبط والتضارب الذى كانوا فيه فى تلك اللحظة إلى درجة أوْدت بهم إلى غضب الله – تعالى– عليهم وأشعر بهذا إعلان سوء ظنهم وحكاية كلامهم .

ولفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل وترغيباً فى العلم .

وفصل جملة ﴿ يَقُولُونَ﴾عن جملة ﴿يَظُنُّونَ﴾ وذلك لما بينهما من كمال الاتصال إذ إن الجملة الثانية وقعت بمثابة عطف البيان من الجملة الأولى إذ وضحت مضمونها

" ووجه حسن هذا الضرب تقوية المعانى وتقريرها وتنشيط النفس وإيقاظها لأنها حين تتلقى كلاماً ملفوفاً بشيء من الغموض تشتاق إلى بيانه وتستشرف فى التعرف على وجهه فإذا جاء البيان صادف نفساً يقظة متطلعة فيتمكن الكلام منها."(١)

والمراد من الاستفهام فى قوله – تعالى – :﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ النفى والإنكار فهم بينهم وبين أنفسهم ينفون علاقتهم بالأمر وينكرونها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الإنكار والتكذيب.

---

(١) السابق ص ٣٠٣ .

وجاء النص القرآنى ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ مؤكداً بإنَّ واسمية الجملة وذلك للإشعار بأن مرجعية كل شيء لله هو أمر آكد لا شك فيه ولا مراء ، كما أن هذه الطريقة فى التعبير تشعر بأن المخاطبين بهذا الكلام كانت ثقتهم مهتزة فى الله وأنهم كانوا يشكون ويمترون في هذا الأمر مما يوحي بضعف إيمانهم .

ولما أكد فى كلامهم بزيادة من فى قوله – تعالى – :﴿مِنْ شَيْءٍ ﴾ جاء الكلام مؤكداً بإنَّ وبولغ فى توكيد العموم بقوله – تعالى – :﴿ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ فكان الجواب أبلغ .

والتعبير بالفعل المضارع ﴿ يُخْفُونَ ﴾وذلك للإشعار باستمرار فعل الإخفاء وأن هذا الإخفاء أصبح ديدنهم كما هو ديدن كل المنافقين مما يوحى بأنهم كانوا فى هذه اللحظة منافقين ويكون قوله – تعالى – ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾" إعلان بنفاقهم " (١)

وإضافة الأنفس إلى ضميرهم يوحى بحقارتهم وخستهم كما تشعر بخبث نيتهم.

وفصل جملة ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ عما قبلها وذلك لأنها بمنزلة عطف البيان من الجملة السابقة فالفصل لكمال

---

(١) التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٣٧ .

**الاتصال ، وفى هذا الفصل تأكيد المعنى المراد وهو إظهار نفاقهم وعدم تحملهم القتال فى سبيل الله تعالى .**

**وقوله – تعالى – :﴿ قُتِلْنَا ﴾ من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء مجاز مرسل إذ لم يقتلوا جميعاً وإنما قتل بعضهم وإلا فكيف يكونون قد قتلوا جميعاً وبعضهم يتحدث .**

**(ومع أن المقالة كانت لبعضهم إلا أنها أسندت إلى جميعهم لأنهم سمعوها ورضوا بها ).(١)**

**والمراد من الأمر ﴿قُلْ﴾ فى قوله – تعالى – :﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ ﴾ وقوله – تعالى – : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ النصح والتوجيه ، فالله سبحانه و– تعالى– يوجه نبيه وينصحه بما يقوله لهؤلاء.**

**" قرأ الجمهور : ( لبرز) ثلاثيا مبنى للفاعل أى لصاروا فى البراز من الأرض ". (٢)**

**" وقرأ : ( لبرّز ) مبنياً للمفعول مشدد الراء . " (٣)**

---

(١) السابق نفسه .

(٢) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٣٩٦ .

(٣) ينظر تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٥ .

فالقراءة الأولى توحى بأنهم هم الذين قاموا بعملية البروز بأنفسهم وأنهم هم الذين كانوا يحاولون بل كانوا يصممون على الوصول إليهم حتى لو كلفهم ذلك تُسلق مرتفعات وأنهم سيصلون إليهم لا محالة .

والقراءة الثانية تشعر بأنهم لم يبرزوا من تلقاء أنفسهم وإنما كان بروزهم من قبل غيرهم كقوادهم مثلا ، وفي هذه الحالة لم يكونوا مثل الفئة السابقة من التصميم والعزم .

وكلا القراءتين حققتا الإيجاز إذ المعنيين الناشئين عنهما يحتاج إليهما السياق.

وتعريف المسند إليه بالموصولية فى قوله – تعالى – :﴿ الَّذِينَ ﴾ وذلك لأن المخاطب لا يعلم من أحوال المسند إليه سوى الصلة وهى كتابة القتل عليهم فبواسطة الموصول وصلته يستطيع المخاطب أن يعرف من المتحدث عنهم .

وخلو لفظ القتل من المد يشعر بحدة الحوار وشدته وأنه – تعالى– غير راغب فى الحديث معهم أو حتى عنهم ، ويؤكد هذا المعنى قوله – تعالى – :﴿قُلْ﴾ إذ طلب من رسول الله ﷺ أن يبلغهم هذا القول كراهية منه – تعالى– لخطابهم بسبب ما فعلوه وما قالوه .

ويتضح التصوير فى قوله﴿مَضَاجِعِهِمْ ﴾ حيث شبه مكان المصرع بالمضجع بجامع السكون فى كل ، ثم استعير المضجع للمصرع على سبيل

الاستعارة التصريحية الأصلية ، وهذه الاستعارة توحى بأن الشهداء سيكونون أحياء منعمين مستمتعين فى فروشهم ومضاجعهم

وإضافة المضاجع إلى ضميرهم توحى باختصاصهم بهذه المضاجع ، وأن كلاً منهم لا يصرع إلا فى مكان مصرعه الذى كتب له .

والجملة السابقة ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ جاءت من قبيل المذهب الكلامى وهو فن بديعى جعل الكلام مؤكداً قوياً بالأدلة والبراهين وهو على حد قوله – تعالى – :﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١)

والإسناد إلى لفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾وذلك إظهاراً للعظمة والفخامة الإلهية والتى بظهورها يدخل الإيناس والطمأنينة فى قلوب المؤمنين .

وقوله – تعالى – :﴿صُدُورِكُمْ﴾ كناية عن الضمائر والسرائر ، وهذه الكناية تصور قدرة الله الواسعة الشاملة على الاطلاع على الضمائر والسرائر وأنه لا تخفى عليه – تعالى– خافية .

وعدَّى إلى الصدور فعل الابتلاء لأنه اختبار الأخلاق والضمائر بما فيها من خير وشر وليتميز ما فى النفس ، وعدَّى إلى القلوب فعل التمحيص لأن الظنون والعقائد محتاجة إلى التمحيص لتكون مصدر كل خير .

---

(١) سورة الأنبياء :آية ٢٢ .

وأنه – تعالى– ما فعل التمحيص إلا لتخليص عقائد هؤلاء من الريب والشك ومن أى شائبة شرك أو ظنا فى الله بغير ما يستحق .

والتعبير بالفعل المضارع ( يبتلى – يمحص) وذلك للإشعار باستمرار هذا من الله

– سبحانه وتعالى– للمؤمنين فالله دائما يبتلى ما فى ضمائرهم وسرائرهم ويمحص عقائدهم وينقيها من كل شك وريب مما يوحى باهتمام الله – سبحانه وتعالى– بالمؤمنين ويؤكـد رأفتــه تعالى– بهم .

وفى تعريف المسند إليه بالعلمية ﴿اللَّهُ﴾ من إظهار للجلال والقدرة الإلهية فى هذا المقام ما لا يخفى .

والتعبير بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾ مع تنكيرها يوحى بكثرة هذا العلم وعظمته فهو كثير كثرة لا نظير لها بحيث يسع ويشمل كل المخلوقات وعظيم عظمة بحيث لا يقادر قدرها ولا يُدْرَك كنهها .

وجملة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ جيء بها على سبيل الإطناب عن طريق التذييل والغرض من هذا التذييل التنبيه على أن الله – تعالى– غنى عن الابتلاء ، وإنما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين .

والآية التالية تبين سبب توليهم يوم التقاء الجمعان فى غزوة أُحُد وهو إزلال الشيطان لهم واتباعهم إياه فى الذنوب والمعاصى ، ثم يبين الله –

تعالى- فى الآية نفسها عفوه عنهم وأنه غفور رحيم فيغفر الذنوب جميعها ويستر عبيده على الرغم ما فعلوه .

يقول - تعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٥٥)﴾.

وسبب نزول هذه الآية قيل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يخطب يوم الجمعة فقرأ آل عمران وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها فلما انتهى إلى هذه الآية قال:- لما كان يوم أحد فهزمنا مررت حتى صعدت الجبل فلقد رأيتنى أنزو كأننى أروى والناس يقولون : قتل محمد ، فقلت : لا أجد أحداً يقول : قتل محمد إلا قتلته حتى اجتمعنا على الجبل ، فنزلت هذه الآية كلها وقال عكرمة : نزلت فيمن فر من المؤمنين فراراً كثيراً منهم رافع بن المعلى ، وأبو حذيفة بن عتبة ، ورجل آخر (١) .

وفصل بين جملة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ ﴾ وما قبلها وذلك لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، إذ إن هذه الآية جواباً لسؤال أثارته الآية السابقة تقديره لماذا فعلوا ما فعلوه وقالوا ما قالوه وانهزموا ؟ فقيل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ. . .﴾ الآية .

---

(١) البحر المحيط ج ٣ص ٣٩٧ .

وتعريف المسند إليه بالموصولية فى قوله – تعالى – :﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾لأن فى التعبير بالاسم الموصول إخفاء لاسم المذنبين المولين أدبارهم فى غزوة أُحُد ستراً عليهم ، وفى ذلك من إدخال الإيناس فى قلوبهم ، والرجاء فى هدايتهم ما ليس فى إفشاء أسمائهم وفضيحتهم .

والتعبير بالفعل الماضى فى قوله – تعالى – :﴿ تَوَلَّوْا ﴾ وذلك للإشعار بحدوث الفعل منهم ووقوعه وقوعاً حقيقياً لا شك فيه ولا مراء .

وظاهر ﴿تَوَلَّوْا ﴾ يدل على مطلق التولى يوم اللقاء سواء فرَّ إلى المدينة أم صعد الجبل . . وظاهر هذا التولى أنه معصية لذكر استزلال الشيطان وعفو الله عنهم ، ومن ذهب إلى أن هذا التولى ليس معصية لأنهم قصدوا التحصن بالمدينة وقطع طمع العدو ، ومنهم لما سمعوا أن محمداً قد قتل أو لكونهم لم يسمعوا دعاء النبى ﷺ إلى عباد الله للهول الذى كانوا فيه لكونهم كانوا سبعمائة والعدو ثلاثة ألاف وعند هذا يجوز الانهزام أو لكونهم ظنوا أن الرسول ﷺ ما اتخذ إلى الجبل وأنه يجعل ظهره المدينة فمذهبه خلاف الظاهر . (١)

(١) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٣٩٨ .

ويتضح القصر فى قوله – تعالى – :﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ إذ قصر توليهم يوم التقى الجمعان على استزلال الشيطان لهم واتباعهم له فى الذنوب والمعاصي قصراً حقيقياً ادعائياً .

وهذا القصر يصور هؤلاء وكأنهم باعوا أنفسهم للشيطان مسلوبي الإرادة مستسلمين له ومتبعين إياه فى كل ما يقول .

وإدخال السين والتاء الطلبيتين على الفعل يؤكد المعنى الذى استشعر من القصر ، كما أن وجودهما يوحى بأن الشيطان قد تحايل في فعل كل ما بوسعه وألح عليهم ، وعن ضعف منهم وجهل قد استجابوا له ونفذوا طلبه ووقعوا فى الخطايا والذنوب إذ إن استزلال معناها " استفعال لطلب أى طلب منهم الزلل ودعاهم إليه لأن ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه " (١) ويؤكد هذا المعنى التعبير بالكسب دون الاكتساب والذى يشعر بأنهم قد فعلوا كل ما فعلوه وارتكبوا من الذنوب مـا ارتكبوه دون أدنى مشكلة أو تكلف من أنفســهم وكأن هذا الأمـر طبيعـة فيهـم

لا يحتاجون في فعله أي مجهود أو تكلف وكأنهم كانوا مغيبى العقول متحجري القلوب.

وأوثر التعبير بالفعل الماضى المقترن بقد فى قوله – تعالى – :﴿وَلَقَدْ عَفَا ﴾ وذلك للإشعار بوقوع العفو من الله – تعالى– وقوعاً حقيقياً وقد حدث

---

(١) ينظر السابق ص ٣٩٩ .

من الله لهؤلاء حدوثاً مؤكداً وأن هذا العفو قد كتب لهم من الله – عز وجل – منذ الأزل وفي هذا من البشرى ما لا يخفى .

ويلاحظ أنه قد أعيد الإخبار بالعفو الذى مر الإخبار به فى الآية التى قبل السابقة . وذلك لإدخال الأنس فى قلوب المعفو عنهم وإسدال الطمأنينة عليهم وإزالة الوحشة من نفوسهم والتي تتمثل فى خوفهم من غضب الله – عز وجل – وعفوه – تعالى– عنهم .

وعرف المسند إليه بالعلمية ﴿ اللَّهَ ﴾ وذلك لإظهار العظمة والفخامة الإلهية ، كما أن العفو شيء فيه بشرى وأنس ، والله – تعالى– يسند مثل هذه الأشياء إلى نفسه بخلاف الأمور التى تكون عكس ذلك فقلما لا يسندها إليه – تعالى – .

ويلاحظ الإظهار فى مقام الإضمار ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ إذ كان من الممكن أن يضمر ويقول أنه غفور حليم لكنه أظهر ، وهذا تقوية لداعى الامتثال لأوامره – تعالى – ، كما أن فى إظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيدا للتعليل.(١) وإيثار التعبير بصيغتى المبالغة ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ للإشعار بسعة مغفرة الله سبحانه و– تعالى– وحلمه وكثرتهما لديه – تعالى –، وأنه بلغ منهما مبلغاً عظيماً بحيث لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه .

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٦ .

وفصلت جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال إذ إن الجملة الأولى ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أثارت سؤالاً تقديره لماذا عفا الله عنهم ؟، فقيل إن الله غفور حليم .

وجاء الله –عز وجل – بهاتين الصفتين ( الغفران والحلم ) دون غيرهما من الصفات ، وذلك لأن المتَحَدَث عنهم كانوا فى أمس الحاجة إلى مغفرة الذنوب والستر على العيوب ، وعدم فضيحتهم فكانت هاتان الصفتان أنسب فى هذا المقام مما يشهد بدقة التعبير القرآنى .

# المبحث الثالث

## تحذير الله للمؤمنين من اعتقادهم مثل معتقدات الكَفَرة.

وفي الآية التالية يُحَذِّر الله سبحانه و– تعالى – عباده المؤمنين من أن يعتقدوا مثل اعتقاد الذين كفروا من أنهم يستطيعون أن يمنعوا الموت عن أحد إذ كان الكفار يقولون لإخوانهم وأعزائهم لو كانوا عندنا ولم يخرجوا إلى السفر أو للجهاد أو للقتال فى المعارك ما أصابهم الموت أو القتل وهذا الاعتقاد الباطل يجعل قلوبهم تمتلئ حسرة وألماً ويصيبهم الغم والحزن فى الدنيا على ما فاتهم والعقاب فى الآخرة على ما اعتقدوا وقالوا فى الدنيا ، كل هذا وهم يتناسون أن الله – تعالى– هو الذى بيده الموت والإحياء لأنه عالم بصير بكل ما يقومون به من أعمال .

يقول – تعالى–: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾.

ويلاحظ أن الآية صدرت بالنداء للمؤمنين بـ ( يا ) دون غيرها مع أن المؤمنين والمؤمنات قريبون من الله – تعالى– والله قريب منهم وذلك للإشعار ببعد مكانتهم وعلو منزلتهم تنزيلا بعد المنزلة ، منزلة لبعد المسافة .

والمراد من النداء فى الآية هو تنبيه العقل ولفت الذهن وتهيئة النفوس لما يأتي عقب النداء وهو النهى والحرص على العمل بموجبه ، وعاون على تحقيق هذا الغرض ذكر أداة النداء ( يا ) مصحوبة بـ ( أيها).

" لأن حرف ( أى ) يأتى بها واصلة لنداء ما فيه ( ال) فإذا نادينا ما هو معرف ( بأل ) فلابد من وجودها مع ( يا ) فيقال : ( يا أيها النبى ، يا أيها الذين آمنوا).

و( أى ) اسم مبهم يحتاج إلى توضيح إبهامه ويكون وصفاً .

فحرف النداء داخل ( أى ) ولفظ ما فيه ( أل ) صفة له وموضح للإبهام ، وفى التوضيح بعد الإبهام نوع من التوكيد وذلك لانتظار السامع مع وجود الإبهام إلى ما يكشفه ويزيل غموضه ، فإذا جاء هذا بعد النداء يمكن فى النفس وقرا فى الذهن .

أما حرف ( هـ) الواقعة بين ( أى ) والوصف فهى امتدادها تقوى حرف النداء ( يا ) .

وقد كثر هذا الأسلوب من النداء فى القرآن الكريم كثرة زادت عنها فى كلام العرب وتحدث عن هذه الظاهرة كثير من العلماء " . (١)

والتعبير باسم الموصول فى قوله – تعالى – :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ﴾

يشعر بالتعظيم والتفخيم وذلك لأن كل من آمن إيمانا صحيحاً لابد أن يكون شأنه العظمة والفخامة .

---

(١) لغة المنافقين فى القرآن د / عبد الفتاح لاشين ج ١ ص ٨ ط الرائد العربى – بيروت .

ويؤكد هذا المعنى المجئ بجملة الصلة ، جملة فعلية فعلها ماض ﴿آمَنُوا﴾ وذلك لما يشعر به الفعل الماضى من تحقق الوقوع وفى هذا من إدخال الإيناس والطمأنينة وإزالة الوحشة مالا يخفى إذ إن الإقبال على المؤمنين بالخطاب تلطف بهم جميعا بعد تقريع فريق منهم ،الذين تولوا يوم التقى الجمعان .

والمراد من النهى فى قوله – تعالى – :﴿لَا تَكُونُوا ﴾ التحذير من معتقدات الكفرة وأقوالهم وأفعالهم ، ويشعر هذا النهى بحب الله – تعالى– للمؤمنين ورغبته القوية فى وضعهم دائما على الصراط المستقيم والقرب منه – عز وجل –.

وأما التعريف باسم الموصول فى قوله – تعالى – :﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيشعر بالحقارة والوضاعة ، فما أحقر ولا أوضع ممن يكفرون بالله ويعصونه فى كل أفعالهم ويضربون بأوامره – تعالى– عرض الحائط .

والتعبير بالفعل الماضى يوحى بوقوع الكفر منهم وقوعاً محققاً مؤكداً وكأن الكفر أصبح سمة وعلامة لهم .

وقيل أن المقصود بهؤلاء هم المنافقون القائلون : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ " وإنما ذكر فى صدر جملة الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال المؤمنين ، وتنفيراً عن مماثلتهم." (١)

ووصلت جملة ﴿وَقَالُوا﴾ بما قبلها ﴿ كَفَرُوا﴾ لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى ، كما أن كلاً منهما تمثل عقيدة باطلة ومفهوماً خاطئاً يؤدى بصاحبه إلى الهم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة .

وآثر التعبير القرآنى ﴿ إخوان ﴾ بدلاً من لفظ ﴿ أخوة ﴾ لأن المراد هنا والله أعلم الأصدقاء وحواشى النسب معاً فدل لفظ واحد على معنيين مختلفين ،الأصدقاء الذى هو المعنى الذى يفيده غالباً ، وحواشى النسب .

كما أن هناك فرقا دقيقا بين ﴿ إخوان ﴾ و ( إخوة ﴾ وهو " أن اختصاص الأخ المجازى بزيادة المد بالألف يتناسب مع بعد الرابطة ، وكأن هذا المد الزائد بما يستغرقه من إطالة زمن النطق يشير إلى مسافة أبعد من رابطة الأخوة ، وبقيت ( الأخوة ) بقلة حروفها وقصر نطقها رمزاً لقرب الصلة المتمثلة فى رابطة النسب . " (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود ج ١ص٤٣٧

(٢) الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ ص ١٨١ .

وإضافة ﴿ إخوان ﴾ إلى ضميرهم توحى بالاختصاص مما يؤكد أن المراد بكلمة ﴿ إخوان ﴾ حواشى النسب ومن تربطهم بهم علاقة صداقة قوية .

وإيثار ( إذا ) المقيدة لمعنى الاستقبال على ( إذ ) المقيدة بمعنى المضى " لحكاية الحالة الماضية إذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم الذى يدور عليه أمر استحضار الصورة ." (١)

وذهب أبو حيان إلى أن هذا الإيثار كان له سبب آخر غير الذى قاله أبو السعود وهو أن ( إذا ) استعملت مع الفعل الماضى ﴿ضَرَبُوا﴾ على أساس أن كلمة الذين اسم موصول يعم كل من كانوا على نفس الشاكلة فى كل الأزمان . إذ يقول : " دخلت إذا" وهى حرف استقبال من حيث الذين اسم فيه إبهام يعم من قال فى الماضى ومن يقول فى المستقبل ، ومن حيث هذه النازلة تتصور فى مستقبل الزمن.

والتعبير بالفعل الماضى فى قوله – تعالى – :﴿ضَرَبُوا﴾ يوحى بانتهاء الأمر وحدوثه بالفعل وأنهم أصبحوا لا حيلة لهم فيه لأنه أمر وقع وانتهى إذ إنهم لم يقولوا هذا القول إلا بعد موت إخوانهم أو قتلهم .

ووجود ( لو ) فى التعبير﴿لَوْ كَانُوا ﴾ يشعر بعزة هذا الأمر بل استحالته وأنهم يدركون هذا جيداً لذا استعملوا ( لو ) المشعرة ببعد الأمر المحدث عنه.

---

(١)تفسير أبي السعود ج١ ص٤٣٧

" وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الأرض لأنه المقصود بيانه فى المقام وذكر الضرب فى الأرض توطئة له وتقديمه لكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الأرض . " (١)

وقرأ الجمهور﴿غُزًّى﴾ بتشديد الزاى ، وقرأ الحسن والزهرى بتخفيف الزاى

. فالقراءة الأولى توحى بكثرة غزوهم وتكراره وشجاعتهم المطلقة ، والقراءة الثانية توحى بقلة هذا الغزو وندرته وأن هؤلاء ليسوا على درجة شجاعة الفريق الآخر ، والسامع يحتاج إلى القراءتين معاً ، وقد نشأ عن هاتين القراءتين الإيجاز الذى هو من المقاصد المهمة للبلاغة ، إذ لو لم تكن هاتين القراءتين لقيل : ( وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّاً أو حتى كانوا غزاً ) ، وهاتان القراءتين معاً تشعران بأنهم كانوا لا يقولون هذا القول إلا لمن وقع منه الغزو سواء كثر غزوه أو قل حتى ولو وقع منه الغزو مرة واحدة وقتل .

وقدموا عنديتهم فى قوله – تعالى – :﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ﴾ على نفيهم

الموت أو القتل فى قوله – تعالى – :﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾لأن من المهم

لديهم أولاً إظهار سبب حمايتهم من الموت أو القتل وهى وجود إخوانهم عندهم أو بجوارهم ، وعدم خروجهم إلى السفر أو الجهاد ، ثم بيان سبب نفى الموت أو القتل ثانياً .

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ج ٣ ص ٤٠١.

وقدم الموت على القتل وذلك جرياً على النسق الطبيعى لترتيب الآية إذ قدم الضرب الذى يعنى السفر وغالباًُ ما يكون إزهاق الروح فيه ليس بسبب القتل وإنما يكون إزهاقاً طبيعياً ربانياً كأن يكون وافاه الأجل فى وقت ومكان معين وهو ما يطلق عليه الموت . أما فى الغزو فغالباً ما يكون إزهاق الروح فيه بسبب القتل وأما الموت الطبيعي بدون قتل قليل ما يحدث.

ويلاحظ الجمع مع التقسيم فى الآية إذ جمع أولاً المتحدث عنهم فى لفظ واحد ﴿ إخوان﴾ ، ثم قسم ثانياً إلى من يضرب فى الأرض ، ومن يغزو من أجل الحرب ، ثم جمع ثالثا فى قوله – تعالى – :﴿ كَانُوا عِنْدَنَا ﴾ ، ثم قسم رابعاً إلى من مات ومن قتل ، وقد أدى هذا اللون البديعى

( الجمع مع التقسيم ) إلى شحذ ذهن السامع ولفت انتباهه وتشويقه وإثارته .

ويتضح إيجاز الحذف فى قوله – تعالى – :﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾

والتقدير : فما ماتوا فى سفرهم وما قتلوا فى الغزو وحذف الجار والمجرور فى الموضعين قد أدى إلى الإيجاز والاختصار إذ حقق الإيجاز فى الآية غايته وهو المسارعة إلى المطلوب وهو الإخبار بأنه لا نتيجة لمقالتهم هذه إلا جعل الحسرة فى قلوبهم بأن يغْتَموا فى الدنيا ويُعَاقَبوا فى الآخرة.

وعرف المسند إليه بالعلمية فى قوله – تعالى– َ:﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ﴾ وذلك لإدخال الهيبة والروع فى نفوس كل من كان على شاكلة هؤلاء السابق ذكرهم .

" وأسند الجعل إلى الله ،لأنه هو الذي يضع الغم والحسرة في قلوبهم عقوبة لهم على هذا القول الفاسد." (١)

والتعريف بالإشارة فى قوله – تعالى – :﴿ ذَلِكَ﴾ للتحقير والتهوين إذ إن ( ذلك ) تشير إلى ظنهم الوضيع النابع من كفرهم بقضاء الله وقدره من أن إخوانهم لو لم يحضروا القتال لم يُقْتلوا .

وتنكير ﴿حَسْرَةً﴾ يوحى بعظم هذه الحسرة وكبرها في قلوبهم وأنها حسرة بلغت من الإيلام والإيجاع مبلغا كبيرا بحيث لا يتحملها أحد .

" والحسرة : شدة الأسف أى الحزن وكان هذا حسرة عليهم لأنهم توهموا أن مصابهم نشأ عن تضييعهم الحزم وأنهم لو سلكوا غير ما سلكوه لنجوا فلا يزالون متلهفين على ما فاتهم ، والمؤمن يبذل جهده فإذا خاب سلم لحكم القدر ." (٢)

---

(١) البحر المحيط ج ٣ص ٤٠٤

(٢)تفسير التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٣٢

وحرف الظرفية ﴿فِي﴾ فى قوله – تعالى – :﴿فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يوحى بأن قلوبهم قد ملئت بالحسرة وأصبحت كالوعاء لها وأنها قد فاضت بها مما يوحي بتمكن الحسرة من قلوبهم وشدة إيجاعها لهم .

وتقديم أحد متعلقى الفعل ( حسرة ) على الآخر ( فى قلوبهم ) وذلك تعجيلاً بالمساءة وإدخالاً للوحشة فى قلوبهم وكأن تقديم هذه الكلمة ( الحسرة ) بحركاتها وما تشتمل عليه من حروف مهموسة كاللطمة على وجوههم والقذا فى عيونهم ، كما أن فى هذا التقديم عنصر المفاجأة والمداهمة الأمر الذى أخرس ألسنتهم وأسكت أقوالهم الباطلة .

والغرض من الخبر فى قوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ هو الرد على مقالتهم الباطلة وتكذيبهم ، وفى إخبارهم بأن الله هو القادر على الإحياء والموت مع أنهم يعلمون ذلك تعريضا بغبائهم وتذكيراً لهم بما يعلمون وكأنه – تعالى– أراد بهذا الخبر أن يُحْرجهم ويُخْجِلهم من أنفسهم

وتعريف المسند إليه بالعلمية فى قوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وذلك لإظهار العظمة والجبروت والفخام الإلهية إذ إنه لا يقدر أحد على هذين الفعلين إلا هو – تعالى –.

ويتضح طباق الإيجاب بين قوله – تعالى – :﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وهذا الطباق أبرز المعنى وأوضحه وهو قدرة الله الواسعة وسلطانه الشامل وقدرته الفائقة على الإتيان بالفعلين المتضادين معاً.

والغرض من الخبر فى قوله – تعالى – :﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تهديد لمن قال مثل قولهم ومن فعل مثل فعلهم وتحذير المؤمنين من أن يفعلوا مثلهم .

ويلاحظ الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾إذ كان من الممكن أن يضمر ويقول وهو بما تعملون بصير ولكنه أظهر وقال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وذلك لتربية المهابة وإلقاء الروع في قلوب كل من تسول له نفسه أن يماثل الكفرة السابق ذكرهم في معتقد أو حتى قول ، والمبالغة فى التهديد والتشديد فى الوعيد .

وقدم الجار والمجرور﴿بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على قوله﴿بَصِيرٌ﴾ لأهمية الإشارة أولاً إلى أعمالهم ثم الإخبار ثانياً بأن الله بصير لأنهم يعلمون جيداً أن الله – تعالى– عليم بصير بكل شيء ، وإن كانوا يتجاهلون ذلك ويتناسونه أحياناً .

كما أن في هذا التقديم لفت لأنظارهم إلى أعمالهم ودعوة إلى تأملها والتفكر فيها لعلهم بعد ذلك يرجعون عن الأعمال السيئة ويبتعدون عنها ويقبلون على الأعمال الحسنة .

وقد عاون هذا التقديم على الإشعار بالتهديد والوعيد وإحداث الروع والتخويف فى نفوسهم .

وفى تنكير ﴿بَصِيرٌ ﴾ ما يوحى بالتعظيم والتفخيم فالله – تعالى– يبلغ من العلم والبصر مبلغاً عظيماً هائلاً إذ هو اللطيف الذي يتمكن من الاطلاع على أدق الأشياء وأخفاها .

وعلاقة الفاصلة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ بما قبلها هى علاقة التوشيح وذلك لأن الآية قد ورد بها معنى أشار إلى هذه الفاصلة وهو الذى يتضمنه قوله – تعالى – :﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ وهذا يشعر بأن الله – تعالى– عالم بصير بخبايا الأشياء جميعها حتى ما فى القلب ، وهذا المعنى الذى ورد فى النص الكريم جعلنا نعرف الفاصلة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قبل النطق بها .

والآية التالية تقرر بأنه لو تم ما يحذرونه من القتل أو الموت لأحد فى سبيل الله سيكون هذا سببا في حصوله على مغفرته ورحمته – تعالى – وهذا خير مما يجمعون من حطام الدنيا ومنافعها.

يقول – تعالى-: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)﴾.

ويلاحظ الإيجاز فى قوله – تعالى – :﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ ﴾ إذ حذف حرف القسم والمقسم به والتقدير ( والله لئن متم أو قتلتم ) وهذا الحذف لدلالة اللام الموطئة للقسم عليه .

والتعبير بـ ( إن ) بدلاً من ( إذا ) فى قوله – تعالى – :﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ ﴾ وذلك للإشعار بأن هذا الأمر القتل أو الموت فى سبيل الله من المخاطبين بالآية السابقة سيكون من القلة بمكان وأنه من النادر لو حدث لهم ذلك الأمر ، إذ لا يقتل أو يموت فى سبيل الله إلا من قوى إيمانه وازداد قربه من الله –عز وجل –، وهؤلاء ليسوا كذلك ، ودل على هذا قولهم السابق ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ إذ لا يقول مثل هذا القول إلا من كان ضعيف الإيمان .

واشتمال لفظ القتل على القاف المطبقة والتاء المهموسة والميم الشفوية يساعد في تصوير المعنى بدقة فالإطباق يصور القتل وكأنه وحش خطير يطبق على من كتب عليه القتل .

والهمس يساعد في تصوير استسلام المقتول بحيث لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ولا يسمع منه إلا أنينا مهموسا .

وأما شفوية حرف الميم فتساعد في تصوير الحسرة التى تملأ قلب المقتول الذى لا يستطيع التعبير عما بداخله حتى ولو عن طريق تحريك شفتيه .

" وقدم القتل هنا لأنه ابتداء إخبار ، فقدم الأشرف الأهم فى تحصيل المغفرة والرحمة إذ القتل فى سبيل الله أعظم ثواباً من الموت فى سبيله."(١)

وإضافة سبيل إلى لفظ الجلالة ( الله ) يوحى بشرف هذا السبيل وفخامتــه ونزاهتــه إذ أنه سبيل الفخم العظيم صاحب الجلال والجبروت ، كما تشعر هذه الإضافة بإخلاص هؤلاء المقتوليـن أو الميتين في سبيل الله .

والتقييد بالجار والمجرور فى قوله – تعالى – :﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يشعر بسمو الغاية ونبل الغرض الذى من أجله القتل أو الموت وأنه لا يدانيه مرتبة أو تضاهيه منزلة .

---

(١) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٤٠٥ .

ويلاحظ حذف جواب الشرط فى الآية والتقدير ( ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لنالكم مغفرة من الله ورحمة ولمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ) وهذا الحذف قد دل عليه جواب القسم وقد أدى هذا الحذف إلى الإيجاز والاختصار وساعد على المسارعة إلى المطلوب وهو الإخبار بأن مغفرة الله ورحمته خير مما يجمعون .

وتنكير ( مغفرة – رحمة ) يحتمل التقليل والتعظيم معاً ، فالتقليل على أن كلا منهما جزءًا قليلا من مغفرة الله – عز وجل – ورحمته الواسعة ، وأما التعظيم فيكون على أن كلاً منها من قبل الله العظيم الفخم ، فحينما يمن الله على أحد من عباده بهما يتمتع بالنعيم فى الدنيا والآخرة .

ويلاحظ تقديم لفظ المغفرة على الرحمة وذلك لأن " المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة تطلب قبل الغنيمة . " (١)

وتنكير ( خير ) يوحى بالكثرة والعظمة فالخير الذى يكون من وراء مغفرة الله ورحمته يبلغ من الكثرة مبلغاً عظيماً فخماً بحيث يعم كل من غُفِر له ورُحِم .

" وقرأ الجمهور﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ بتاء الخطاب ،وقرأ حفص عن عاصم بياء الغائب على أن الضمير عائد إلى المشركين أى خير لكم من غنائم المشركين التى جمعوها وطمعتم أنتم فى غنمها ." (١)

---

(١) ينظر من أسرار التعبير القرآنى صفاء الكلمة د / عبد الفتاح لاشين ص ٢٢٧ ، ط دار المريخ للنشر بالرياض ت . ط ١٢٣٠ هـ – ١٩٨٣ م .

**فقراءة الفعل بالتاء تارة والياء تارة أخرى كانت من العوامل التى حققت الإيجاز فى الآية إذ لو لم يكن هناك قراءة غير قراءة الفعل بالياء لقيل خير مما يجمعون هم وخير مما تجمعون أنتم .**

**كما أن قراءة الياء جعلت الآية بها التفاتاً فبدل من أن يقول تجمعون قال يجمعون وذلك ليلفت أنظار المخاطبين إلى غيرهم فيكرهوا حالهم ولا يتمنوه لأنفسهم علهم بهذه الطريقة يستجيبون لأوامر الله – تعالى – ونواهيه .**

**" والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك تعرض للإخبار بحصولهما لهم لإيذان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخيب منه – تعالى– بعد الإطماع للمبالغة فى الترغيب في الجهاد ببيان زيادة مزية القتل فى سبيل الله وأنافته فى استجلاب المغفرة والرحمة " (٢)**

**واشتمال الفعل يجمعون على حرف الجيم الشديد المجهور يوحى بشدة الله – تعالى–معهم وحدَّته وكأن شدة هذا الحرف وجهريته عامل من عوامل إفاقتهم وإيقافهم على أنفسهم وقفة تجعلهم يأتمرون بأوامر الله – تعالى– وينتهون بنواهيه .**

**ويلاحظ أنه " فى كل فقرة من الفقرات التى تتألف منها الآية حسن توزيع للمدود والحركات يجعل نغمتها هادئة متساوية الأجزاء ظاهرة الانسجام**

---

(١) ينظر البحر المحيط لأبى حيان ج ٣ص ٤٠٦ .

(٢تفسير أبي السعود ج١ ص٤٣٨

والاتساق موافقة فى نغمتها الهادئة الطويلة بعض الطول مع موضوعها الفكري " (١)

وتأتى الآية التالية التى يعلم الله – عز وجل – فيها الجميع بأن مصيرهم إليه لا إلى غيره سواء قتلوا أو ماتوا فى سبيله أو في سبيل غيره – تعالى – .

يقول –تعالى–: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)﴾.

ويلاحظ أن لفظى القتل والموت قد تكرر مجيئهما فى الآيات الثلاثة المتوالية ، لكن كل مرة يأتى فى نسق مختلف من حيث التقديم والتأخير .

ففى الموضع الأول ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ قدم الموت على القتل لمناسبة ما قبله من قوله – تعالى – :﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى ﴾ .

والموضع الثانى تقدم القتل على الموت بعد لأنه محل تحريض على الجهاد ، فقدم الأهم والأشرف .

والموضع الثالث قدم الموت هنا لأنه الأغلب " (١) .

(١)البناء الصوتى فى البيان القرآنى د / محمد حسن شرشر ص ٤٧ ط دار الطباعة المحمدية / ت ط ١٤٠٧ ﻫ – ١٩٨٨م .

وللشيخ الطاهر ابن عاشور رأى آخر فى التقديم فى الآيتين الأخيرتين إذ يقول : " وقدم القتل فى الأولى والموت فى الثانية اعتبارا بعطف ما يظن أنه أبعد عن الحكم فإن كون القتل فى سبيل الله سبباً للمغفرة أمر قريب ولكن كون الموت فى غير السبيل مثل ذلك أمر خفى مستبعد ، وكذلك تقديم الموت فى الثانية لأن القتل فى سبيل الله قد يظن أنه بعيد عن أن يعقبه الحشر مع ما فيه من التفنن . " (٢)

ويتضح القصر فى قوله – تعالى – :﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾. إذ قصر الحشر على الله قصراً حقيقياً تحقيقياً من باب قصر الصفة على الموصوف طريقه التقديم وهذا القصر يشعر بأن هذا الأمر ( الحشر ) خاص بالله – تعالى– دون غيره ، وأنه لا يتعداه إلى أحد سواه كما أن هذا القصر يوحى بأن الله – تعالى– هو الواحد الأحد الذى يكون المرجع والمآل إليه .

والتعبير بالفعل المضارع ﴿تُحْشَرُونَ ﴾ يشعر بأن هذا الأمر وهو اختصاص الله –عز وجل – بالحشر أمر سيستمر ولا ينقطع أو يتغير فدائماً سيكون الحشر إليه لا إلى غيره – تعالى – .

واشتمال الفعل تحشرون على الحروف المهموسة ( تاء – حاء – شين ) يساعد فى تصوير ما سيكون عليه الناس من حال ضعف واستكانة وهوان

---

(١) ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٤٠٧ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٤٣ – ١٤٤ .

**يوم الحشر فهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً أكثر من الهمس فى ذلك اليوم إن استطاعوه .**

**يقول الله – تعالى-:﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾(١).**

---

(١) سورة طه : آية ١٠٨ .

# المبحث الرابع

## توجيه النبي ﷺ وإرشاده بأن يسلك مسلك الرحمة مع المؤمنين

وينتقل السياق بنا من خطاب الله - تعالى- للمؤمنين إلى التوجه بالنصح والإرشاد لنبيه الكريم ﷺ بأن يسلك مسلك الرحمة مع المؤمنين فى كل أمورهم حتى يكسب قلوبهم وقربهم إليه إذ إنه لو نهج منهج الغلظة لبعدوا عنه وانفضوا من حوله ، ثم ينصحه -عز وجل - بالعفو عنهم والدعاء لهم بالمغفرة وبمشاورتهم فى كل أمر يواجهه ﷺ ، ثم أمره - تعالى- بالتوكل عليه لأنه سبحانه و- تعالى - يحب المتوكلين .

يقول - تعالى -: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾.

" والفاء للتفريع على ما اشتمل عليه الكلام السابق الذى حكى فيه مخالفة الطوائف لأمر الرسول ﷺ من مؤمنين ومنافقين وما حكى من عفو الله عنهم فيما صنعوا ، ولأن فى تلك الواقعة المحكية بالآيات السابقة مظاهر كثيرة من لين النبى ﷺ للمسلمين حيث استشارهم فى الخروج وحيث لم يثربهم على ما صنعوا من مغادرة مراكزهم ، ولمّا كان عفو الله - تعالى- عنهم فى معاملة الرسول ﷺ إياهم إلا أن الله - عز وجل - هم الرسول ﷺ تحقيقاً لرحمته وعفوه فكان المعنى : ولقد عفا الله عنهم برحمته فلان لهم الرسول ﷺ بإذن الله - تعالى- وتكوينه إياه راحماً .

قال – تعالى–: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾" (١)(٢).

وتنكير ﴿رَحْمَةً﴾ يوحى بالكثرة والعظمة والفخامة ، إذ العظمة التي يريدها الله – عز وجل – هي الرحمة التي تتسم بالكثرة والاستمرار فهي رحمة من قبل النبي ﷺ رحمة قد استمدت عظمتها وفخامتها من كونها من عند الله – تعالى –

والتعبير بلفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿مِنَ اللَّهِ ﴾ لإدخال الأنس والطمأنينة فى قلوب السامعين .

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :﴿ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ إذ شبه حسن التعامل واللطف فيه باللين بجامع المرونة فى كل ، ثم استعير اللين لحسن التعامل ثم اشتق لنت من اللين بمعنى حسن تعاملك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وهذه الاستعارة تبرز دماثة خلق رسول الله ﷺ وسهولته ويسره فى كل أموره وتصرفاته ، وأنه كان هيناً فى معاملته للآخرين وكان نديًّا ليِّنا .

---

(١) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٤٤ .

والتعبير بالفعل الماضى فى قوله – تعالى – َ:﴿لِنْتَ﴾ يشعر بأن هذا اللين كان وصفاً تقرر وعرف من خلقه ﷺ، وأن هذا اللين كان ديدنه وطبيعته ﷺ .

ووجود ( لو ) فى التعبير ﴿ وَلَوْ كُنْتَ ﴾ يؤكد المعنى السابق من أن الرسول ﷺ كان دوماً هينا رحيما إذ أن ( لو ) تشعر باستبعاد واستحالة أن يكون رسول الله ﷺ فظاً .

فـ( لو ) حرف امتناع وجود شيء لامتناع وجود شيء آخر وتستعمل في ما يعز وجوده ويندُر .

وتنكير ﴿فَظًّا﴾ يشعر بالتقيل ، فلو كان لدى الرسول ﷺ قدر من الفظاظة حتى ولو كان هذا القدر قليلا لبعد عنه الناس وانفضوا من حوله وما أشعر به التنكير يؤكد المعنى السابق من أن الرسول ﷺلا يوجد عنده شيء من الغلظة أو الفظاظة .

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾إذ كنى بهذا القول عن القسوة والجفاء وهذه الكناية عن صفة .

وهذا التصوير يوضح إلى أى مدى يكون الشخص القاسى الجاف غير مقبول اجتماعياً ونفسياً ، ويبتعد عنه الناس ويجافونه ولا يحاولون الاقتراب منه .

ويتضح الطباق بين ( الرحمة والفظاظة ) ( واللين والغلظة )وهذا الطباق أوضح المعنى وأبرزه وهو الفرق البعيد والهوة الشديدة بين الحالين وحال المرء فى الموضعين .

كما يتضح مراعاة النظير بين ( فظا – غليظ ) إذ أن كلا منهما يتضمن معنى الشدة والقسوة ، وبلاغة مراعاة النظير فى الآية تتمثل فى تحقيق الإيجاز والاختصار إذ بوجوده يصبح المعنى مركزاً إذ الغرض من الآية الحكم بأن من كان فظاً غليظ القلب ابتعد عنه الناس وانفضوا من حوله وليس هذا فحسب بل يكرهونه تماما وهذا الحكم يعم كل من على شاكلة هذا الشخص فكان مراعاة النظير أقصر الطرق فى أداء هذا الغرض وإدخاله إلى النفوس وتثبيته فى الأذهان .

وقوله – تعالى – :﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ كناية عن ابتعاد الناس وعدم استجابتهم وشدة نفورهم ، وهذه الكناية توضح إلى أى مدى يحتاج الناس إلى الرقة واللين فى معاملتهم .

والمراد من الأمر فى قوله – تعالى – :( اعف – استغفر – شاورهم ) للإثارة والتهييج وذلك لأن الأمر متوجه إلى الرسول ﷺ والذى لا يتصور أن يكون منه خلاف هذه الأشياء

" والغرض من مثل هذا الأسلوب هو الالتهاب والتهييج والإثارة حتى يزداد الرسول ﷺعليه السلام تمسكاً بما عليه من الحق واليقين . " (١)

ويلاحظ أن التدريج كان فى هذه الأوامر تدريجاً بليغاً إذ أمر بالعفو عنهم فيما يخصه فإذا صاروا فى هذه الدرجة أمر بالاستغفار فيما لله فإذا صاروا فى هذه الدرجة صاروا أهلاً للاستشارة فى الأمور .

ويلاحظ الحذف فى قوله – تعالى – :﴿ الْأَمْرِ ﴾ إذ حذف المضاف والتقدير : فى بعض الأمر إذ أن الأمر: اسم جنس يقع للكل وللبعض.

ويؤيد هذا قراءة ابن عباس : ( فى بعض الأمر ) وقد أدى هذا الحذف إلى الإيجاز والاختصار .

" وقرأ الجمهور ﴿عَزَمْتَ ﴾ على الخطاب كالذى قبله .

وقرأ عكرمة وجابر بن زيد وأبو نهيك وجعفر الصادق ﴿عَزَمْتُ﴾ بضم التاء "(٢) .

فالقراءة الأولى تسند الفعل إلى ضمير الرسول ﷺ ويكون العزم واقع منه .

---

(١) معانى التراكيب ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) البحر المحيط ج ٣ ص ٤١٠ .

والقراءة الثانية تسند الفعل إلى الله سبحانه ويكون العزم منه – تعالى – . وكلا المعنيين يحتاج اليهما السياق وبهذا يكون قد تحقق الإيجاز .

ويتحقق الإيجاز أيضا فى قوله – تعالى – :﴿عَزَمْتَ ﴾ إذ حذف الجار والمجرور، والتقدير : عزمت على الأمر .

والمراد من الأمر فى قوله – تعالى – :﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ﴾ الحث على الاتصاف بصفة التقوى إذ بها يصبح المسلم على درجة كبيرة من الصلة بربه – عز وجل –.

ويلاحظ الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله – تعالى – :﴿إِنَّ اللَّهَ ﴾ وذلك للتقرير والتمكين إذ كان من الممكن أن يضمر فيقول ( إنه يحب ) لكن لما كان فى هذا الإضمار إبهام، والمظهر يدل على التمكين ويناسب التعظيم والإفراد بالحب ، عدل من الإضمار إلى الإظهار .

وواضح ما بين ( فتوكل والمتوكلين ) من جناس مغاير وهذا الجناس قد أعطى جرساً موسيقياً عذباً أطرب الأذن وهز الوجدان .

وهذا المحسن البديعى " جاء فى القرآن الكريم ليقوم بنصيبيه من أداء المعنى أولاً ، أما ما فيه من جمال لفظى فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات يتطلبها ولا يغنى غيرها عنها " (١) وفصلت جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

---

(١) البناء الصوتى فى البيان القرآنى.

عما قبلها وذلك لأن الجملة الأولى أثارت سؤالاً تقديره : لماذا كان الأمر بالتوكل؟ ، فقيل : إن الله يحب المتوكلين . فالفصل لشبه كمال الاتصال .

وحروف الهمس فى الآية كـ ( السين – الكاف – التاء – الهاء – الحاء- الفاء – والشين ) تساعد على شيوع روح الرحمة والرقة فى التعامل فى الآية وتساعد فى تصوير العطف والمودة بين الرسول ﷺ وأصحابه .

وأما حروف الإطباق فى الآية كـ ( الظاء – الضاد ) تساعد فى تصوير جفاء الطبع والقسوة والشدة التى يكون عليها الشخص الفظ غليظ القلب ، واللذان يأباهما الإسلام .

ويعود السياق إلى خطاب المؤمنين إذ يخبرهم الله سبحانه و- تعالى- بأنه لو كتب لهم النصر ونصروا لما استطاع أن يخذلهم أحد ، أما لو خذلهم المولى -عز وجل – فلا يستطيع أحد أن يأتى لهم بالنصر ثم يحثهم الله – تعالى- فى آخر الآية بالتوكل على الله فى كل أمر لأن هذا شأن وديدن المؤمنين .

يقول -تعالى-: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾.

ووجود إن فى التعبير مصاحبة للفعل المضارع فى قوله – تعالى – :( إن ينصركم – إن يخذلكم ) يشعر بأن نصر الله وخذلانه لهؤلاء متساويان فنصره – تعالى- لهم قليل ، وكذلك خذلانه وكأن هذا التعبير يشير إلى ما

حدث فى غزوة أُحُد من النصر الذى لم يستمر وقتاً طويلاً ، ثم الخذلان الذى لم يظل وقتاً طويلاً أيضا .

ويمكن أن يكون وجود ( إن ) فى التعبير إشارة إلى عدم اهتمام الله – عز وجل – بهم من حيث النصر أو الخذلان ، وكأن هذا تبكيت وتوبيخ على ما وقع منهم من تقصير.

ويمكن أن يكون إيثار أداة الشرط : (إن)على (إذا) فى قوله – تعالى – : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ ﴾" ليكون المؤمنون بين الخوف والرجاء لأنهم لو وثقوا من النصر كل الثقة لناموا ولو وثقوا من الهزيمة كل الثقة لضاعوا ، فكان من الحكمة أن يترقبوا النصر مع الأخذ بأسبابه ، ويخافوا الهزيمة بتجنب أسبابها . " (١)

وتعريف المسند إليه بالعلمية لفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ ﴾ لإدخال الأنس والفرحة فى قلوب المؤمنين الذين كتب لهم النصر بعد أن كان الخوف والرعب من الهزيمة .

والمراد من الخبر فى الآية هو الترغيب فى طاعة الله والحث على تحصيل أسباب النصر والتى منها الطاعة والتقوى وتجنب أسباب الهزيمة .

---

(١)التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم ج ١ ص ١٩٣ .

والتعبير باسم الفاعل ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ وذلك للإشعار بالثبات والدوام ؛ أى إذا كتب الله -عز وجل - النصر لأحد فلا يستطيع أحد أن يغلبه حتى ولو كانت صفة الغلبة صفة ثابتة فيه مستقرة وقد اشتهر بها كما هو المفهوم من دلالة اسم الفاعل .

ويتضح التصوير فى قولـه – تعالى – :( ينصركم – يخذلكم ) إذ أطلق المسبب ( النصر أو الخذلان ) وأراد السبب وهى إرادتهما معاً على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المسببية ، وهذا المجاز يوضح مدى ارتباط السبب بالمسبب وعلاقتهما القوية ببعض كما يوضح قدرة الله –تعالى– الفائقة إذ يُحدِث الشيء بمجرد إرادته – تعالى –، وأنه لا يعجزه شيء ، والمراد من الاستفهام فى قوله – تعالى – :﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ هو النفي والتقرير ، فالله – تعالى – ينفي أن هناك أحدا يمكن أن ينصر أحدا كتب عليه الخذلان ويقرر ذلك ، وهذا النفي يوحى بأن فاعل النصر بعد خذلان الله لقوم لا وجود له .

ويلاحظ أن النظم الكريم " فى جانب النصر أتى بالنفى صريحاً﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ وفى جانب الخذلان أتى بالنفي غير صريح ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي ﴾ تلطفا فى الخطاب مع المؤمنين " (١) وإدخالاً للأنس فى قلوبهم .

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم ج ١ ص ١٩٣ .

ويلاحظ الحذف فى قوله – تعالى – :﴿مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إذ حذف المضاف إليه والتقدير: من بعد خذلانه ، وقد حقق هذا الحذف الإيجاز والاختصار ، كما ترك هذا الحذف العنان للفكر والخيال حتى يتصور ما يتصور ويتخيل ما يتخيل ما هو الشيء المحذوف .

ويأتى القصر فى قوله – تعالى – :﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إذ قصر التوكل على الله –تعالى– قصراً حقيقياً تحقيقياً من باب قصر الصفة على الموصوف وطريقه التقديم .

وهذا القصر يشعر بأن الله – تعالى– هو الأحق بالتوكل ، وأنه لا ينبغى أن نتوكل على غيره إذ هو الجدير بهذا واللائق به – تعالى– "وفى الإتيان بهذه الجملة فى عجز الآية ترغيب وحث للمؤمنين على التوكل على الله " (١).

والمراد من الأمر الذى جاء بصيغة الفعل المضارع المقترن باللام هو الحث والتحضيض على الاتصاف بصفة التوكل على الله واتخاذها منهجاً ومبدأً عاماً في كل شؤون الحياة .

والمراد من قوله – تعالى – ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾" إما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولاً أولياً وإما هم خاصة بطريق الالتفات وأيا ما كان ففيه

---

(١) السابق نفسه .

تشريف لهم بعنوان الإيمان اشتراكا أو استقلالا وتعليلا لتحتم التوكل عليه تعالى فإن وصف الايمان مما يوجبه قطعا. " (١).

كما يتضح الإطناب فى قوله – تعالى – :﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا الإطناب جاء عن طريق التذييل ، وهذا التذييل " قصد به الأمر بالتوكل المستند إلى ارتكاب أسباب نصر الله –تعالى– من أسباب عادية وهى الاستعداد ، وأسباب نفسانية وهى تزكية النفس واتباع رضى الله –تعالى–. " (٢)

وينتقل بنا السياق إلى الحديث الذى ينفى الغُل عن رسول الله ﷺ والذي يخبرنا فيه أيضا الله – سبحانه وتعالى – بأن من يغل سوف يكون حسابه عسيراً ويأتى بما غل يوم القيامة ثم بعد ذلك تعطى كل نفس ما تستحقه من جزاء إذ لا يظلم أحدا سبحانه و– تعالى –، ثم يخبرنا – تعالى– بعدم تساوى من رضى الله – تعالى– بمن باء بسخطه – تعالى– والعياذ بالله لأن كل منهما له درجة ، كما أن الله – عز وجل – بصير بأعمالهم فيعطى لكل ما يستحقه ، ثم يُذكِّرهم الله –عز وجل – بمنَّته الكبرى على المسلمين جميعا وعلى العرب خاصة ، وهى إرسال الرسول ﷺ لهم ،وهذا الرسول ﷺ منهم لكى يعلمهم الكتاب والحكمة وأصول الدين وفروعه وكانوا من قبل إرسال هذا الرسول ﷺ فى ضلالات كثيرة وظلمات لا حصر لها .

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٣٩ .

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج ٤ ص ١٥٤ .

يقول – تعالى – : ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾.

ويعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن غزوة أُحُد إذ تأتى الآية التى ينكر فيها الله –تعالى– عليهم تعجبهم من إصابتهم بمصيبة قد أصابوا مثليها إذ قتل منهم فى غزوة أُحُد سبعون وقد قَتلوا هم سبعين وأسروا مثلهم فى غزوة بدر ، ثم يخبرهم سبحانه و– تعالى– بأن مصيبتهم هذه بسبب ما ارتكبته أنفسهم من المعاصى ، إذ أن هذه المعاصى جعلتهم يستحقون الخذلان والله –عز وجل – قادر على الخذلان والنصر معاً لكنه أعطاهم ما يستحقونه .

يقول – تعالى –: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾.

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد صدرت بالاستفهام والذى أريد به الإنكار المشوب بالتعجب والتقريع والتوبيخ فى قوله – تعالى – :﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ﴾

فالله – تعالى – ينكر عليهم قولهم المتضمن عجبهم واستغرابهم ﴿أَنَّى هَذَا﴾ ويتعجب من ذلك إذ أنهم يعرفون أسباب تلك المصيبة .

"وتوسيط الظرف وما يتعلق به بينه وبين الهمزة مع أنه المقصود إنكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد التنكير وتشديد التقريع . " (١)

وتنكير ﴿مُصِيبَةٌ﴾ يشعر بالتعظيم فالمصيبة التى أصابتهم كانت مصيبة كبيرة عظيمة الأثر بحيث لا يستطيع أحد تحملها هذا على حد قولهم ونظرتهم .

ويتضح ( المجاز العقلى فى قوله – تعالى – :﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ إذ أسند الإصابة إلى المصيبة والمصيب هو الله لعلاقة المصدرية فالنظم الكريم تجوز في الإسناد ، فحذف الفاعل الأصلي ، وأسند الفعل إلى مصدره ، للمشابهة بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي في تعليق الفعل بهما ، فتعلقه بالفاعل الحقيقي من حيث صدوره منه ، وتعلقه بالفاعل المجازي وهو – المصدر – من حيث إنه هو جزء مفهومه.

ويمكن أن يكون في الآية تصوير فيكون قد شبه المصيبة بالسهم ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإصابة على سبيل الاستعارة المكنية ، وهذا التصوير قد جعل للمصيبة إرادة وكأنها جعلت هؤلاء المسلمين هدفاً لها بسبب عصيانهم .

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٢ .

كما يوحى هذا التصوير بأن هذه المصيبة كانت مصيبة كبيرة أوقفت تفكيرهم وجعلتهم يتعجبون مما حدث.

ويلاحظ الجناس المغاير بين قوله – تعالى – :( أصابتكم ) وقوله – تعالى – : ( مصيبة ) والجناس المماثل بين قوله – تعالى – :( أصابكم ) وقوله – تعالى – : ( أصبتم ) ، وهذا الجناس قد نشأ عنه موسيقى جلبة شديدة فى الآية تهز الكيان وعاون على هذا حرف الصفير ( الصاد ) الذى تكرر ثلاث مرات فى الآية مما أعطى السياق جرساً موسيقياً صاخباً يناسب حالة العجب والدهشة الذى كان يشعر به هؤلاء المجاهدون فى تلك الغزوة ويناسب أيضا الحدة التى رد الله سبحانه و– تعالى– بها عليهم.

ويأتى الاستفهام فى قوله – تعالى – :﴿ أَنَّى هَذَا ﴾ وقد أريد من هذا الاستفهام التعجب والاستغراب والاستبعاد المشوب بالإنكار فهم يتعجبون من إصابتهم بتلك المصيبة ( هزيمتهم فى غزوة أُحُد بعد النصر وقتل سبعين منهم ) مع أنهم أصابوا مثلى هذه المصيبة قبل هذا إذ قتلوا سبعين من المشركين وأسروا مثليهم فى غزوة بدر .

والتعريف باسم الإشارة فى قوله – تعالى – :﴿هَذَا﴾إشارة إلى أن ما حدث فى غزوة أُحُد كان ماثلاً أمام أبصارهم لشدة شناعته ، وكأنهم ينظرون إليه بأبصارهم وهو يقع أمامهم .

**والمراد من الأمر فى قوله – تعالى – :﴿ قُلْ ﴾ هو التعليم والتوجيه فالله – تعالى– يعلم نبيه الكريم كيفية الرد على المسلمين وهو إخبارهم بأن ما حدث هو راجع إلى أنفسهم ومعاصيهم .**

**ولفظ ﴿قُلْ﴾" من أساليب الأمر وتلقين الحجة يقذفها فى وجه الخصم حتى تأخذ عليه سمعه وتملك عليه قلبه ، كما يدل على نوع خاص من العناية والاهتمام بالإرشادات التى سبقت عليه . " (١)**

**وعبر بجمع القلة ( أنفس) بدلاً من جمع الكثرة ( نفوس) وذلك يوحى بهوان تلك النفوس وضآلتها عند الله –عز وجل – إذ هى النفوس المريضة التى عصت الله – تعالى– واستحقت بمعاصيها ما حدث .**

**ويلاحظ الإطناب فى قوله – تعالى – :﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقد جاء هذا الإطناب عن طريق التزييل والمقصود من هذا التزييل تقرير مضمون الآية وهو أن إصابة المسلمين بهذه المصيبة فى غزوة أُحُد كانت بسبب معاصيهم وعدم طاعتهم لله – عز وجل – والرسول ﷺ.**

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى ( الفاصلة القرآنية ) تأليف د / عبد الفتاح لاشين جامعة الأزهر ص٩٧ ، ٩٨ ط دار المريخ للنشر ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م الرياض .

والتعريف بالعلمية فى قوله – تعالى – :﴿ اللَّهَ ﴾ وذلك لإدخال الروع والهيبة فى نفوس كل من كان على شاكلة هؤلاء من العصيان وعدم الانصياع لأوامر الله ونواهيه .

وتقديم الجار والمجرور فى قوله – تعالى – :﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وذلك لأن فى تقديمه تشويق إلى ما سيأتى بعده فحينما يقال : ( إن الله على كل شيء ) يتصور ما يتصور ويتوقع ما يتوقع حتى إذا تأتى كلمة قدير تهدأ النفس وتسكن وتعرف ما كانت تتشوق إليه .

والتعبير بصيغة المبالغة ( فعيل ) فى قوله – تعالى – : ( قدير) وذلك للإشعار بأن الله –تعالى– يبلغ من القدرة مبلغاً عظيمًا بحيث لا يساويه فيها أحد إذ يقول للشيء كن فيكون .

وتوكيد الخبر فى قوله – تعالى – : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وذلك لأنه لما كان القلق ينتابهم ويملأ نفوسهم بسب ما حدث لهم في الغزوة بدا حالهم وكأنهم يشكون في قدرة الله فجاء هذا التوكيد ليواجه قلقهم ويمنع الهلع من قلوبهم ويقطعه .

وتأتى الآية التى يقرر فيها الله – تعالى– أن ما أصاب المسلمين يوم أحد من هزيمة وعدم ثبات على القتال ما كان إلا بإذن الله وتقديراً منه وذلك ليبتلى المؤمنين فى دينهم ويعلم قوة إيمانهم .

يقول الله –تعالى-: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) ﴾.

والتعبير باسم الموصول فى قوله – تعالى – :﴿وَمَا أَصَابَكُمْ ﴾ يشعر بهول هذه المصيبة وضخامتها وأنها كانت عظيمة الأثر فى نفوس المسلمين إذ خلالها شعروا بألم الهزيمة ومن جرائها أصابهم غضب الله ورسوله ﷺ .

ولتأكيد هذا المعنى وتثبيته فى النفوس صدرت جملة الصلة ﴿أَصَابَكُمْ﴾ يوم التقى الجمعان بالفعل الماضى مما يشعر بتحقق وقوع هذه المصيبة وتضرر المسلمين منها .

" وقوله – تعالى – :﴿وَمَا أَصَابَكُمْ ﴾أراد به عين المراد بقوله – تعالى– :﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ فهى مصيبة الهزيمة وإنما أعيد ما أصابكم ليعين اليوم بأنه يوم التقى الجمعان " . (١)

وإضافة ( يوم ) إلى جملة ﴿الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أغنت عن تفصيل المتعذر وتوضيح المتعسر إذ لو لم تكن هذه الإضافة لقيل اليوم الذى التقى فيه المسلمون بالكافرين وحدثت فيه الهزيمة للمسلمين ، وحينما جاءت هذه

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ج ٣ ص ١٦٢ .

الإضافة أغنت عن هذا التوضيح المتعسر وذاك التفصيل المتعذر وحققت الإيجاز والاختصار .

و(اللام ) فى قوله – تعالى – :﴿الْجَمْعَانِ﴾ هى لام العهد ووجود اللام

هذه تشعر بأن كلا الفريقين معروف فجمع المسلمين هو المعهود بالدين والتقى والصلاح ، وجمع الكافرين هو المعهود بالإشراك والعصيان والضلال وكأن وجود هذه اللام يوقف كل فريق من هذين الفريقين

على نفسه ويذكره بحقيقة أمره لعل فريق المؤمنين بهذه الطريقة يفيق ويعود إلى ما كان عليه من مجد دينى .

ويلاحظ حذف المسند إليه فى قوله – تعالى – :﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والتقدير

: فهو بإذن الله ، وقد حقق هذا الحذف الإيجاز والمسارعة إلى المطلوب وهو بيان أن ما حدث لهم ما كان إلا بتقدير الله وإذنه .

وإضافة ( إذن ) إلى ( الله ) يدخل الإيناس والطمأنينة في قلوب المؤمنين إذ إضافة هذا الإذن إلى لفظ الجلالة تمنع القلق من التسلل والدخول إلى النفوس المؤمنة من أن الإصابة بأي شيء لا يكون إلا بإذن الله كما توحى هذه الإضافة بعظمة هذا الإذن وفخامته وهذه الفخامة وتلك العظمة تأتيان من إضافته إلى الله –عز وجل – .

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ إذ أطلق (الإذن) وهو لازم أو مقتضى ، وأراد العلم على سبيل المجاز المرسل لعلاقة اللزومية .

وهذا المجاز جعل الكلام أكثر مبالغة وأقوى تأكيداً إذ جعل المعنى فيه كدعوى الشيء ببينة .

ويأتي الإيجاز مرة أخرة فى قوله – تعالى – :﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذ حذف المسند إليه والمضاف ، والتقدير : ( وليعلم الله إيمان المؤمنين) وحذف المسند إليه يشعر باستياء الله سبحانه و– تعالى– من هؤلاء المعترضين المتعجبين من قدرة الله وإرادته لما أصابتهم تلك المصيبة وكأنه – تعالى– يكره أن يذكر اسمه فى هذا المقام .

وحذف المضاف يترك العنان للذهن ليتصور ما يتصور ويتيح للخيال الفرصة ليتخيل ما يتخيل إذ حينما تسمع هذه الآية يصبح التفكير فى حيرة من تقدير المحذوف،

ويلاحظ فى آيات غزوة أُحُد أن الله – تعالى– قد أطلق على المحاربين فى تلك الغزوة لفظ المؤمنين ، وقد تكرر هذا أربع مرات (١) مع أنهم قد عصوه وقد استاء منهم ولم يطلق عليهم لفظ المسلمين ولو مرة وذلك تكريماً لهم ورفعاً لشأنهم وتطييباً لخاطرهم ، وكأنه بهذا يراعي حالتهم

(١) الايات ١٢٢ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٦ من سورة آل عمران .

النفسية التي تحطمت في أثناء الغزوة وفى هذا من إدخال الإيناس فى نفوسهم مالا يخفى

والآية التالية يخبرنا الله – تعالى– فيها بأنه حدثت تلك المصيبة ليعلم نفاق المنافقين كما علم إيمان المؤمنين إذ إن هؤلاء المنافقين قد قيل لهم قاتلوا مع المقاتلين أو كونوا حماية لصفوف المسلمين أنكروا علمهم بالقتال وتهكموا من القائلين لهم ذلك القول وقد جعلهم قولهم هذا أقرب للكفر إذ قالوا بألسنتهم شيئا غير الذى يضمرونه فى قلوبهم من الحقد والغيظ من المؤمنين وقد علم الله ما يضمرون فى قلوبهم إذ هو أعلم بكل ما يخفى على البشر .

يقول – تعالى –: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾.

وقد حذف من هذه الآية مثل ما حذف من الآية السابقة وهو المسند إليه والمضاف والتقدير وليعلم الله نفاق الذين نافقوا وهذا الحذف قد تعاون في تحقيق الإيجاز والاختصار .

والتعريف بالموصولية فى قوله – تعالى – :﴿ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ للإشعار بحقارة المنافقين وخستهم ودنو منزلتهم وأنهم يحتلون منزلة وضيعة من البشر .

والتعبير بالفعل الماضى فى قوله – تعالى – :﴿ نَافَقُوا ﴾ يشعر بتمكن النفاق من قلوبهم وتحققه منهم .

وحذف المسند إليه فى قوله – تعالى – :﴿ وَقِيلَ ﴾ وذلك للإيجاز والاختصار إذ لولا هذا الحذف لقيل : وقال لهم رسول الله قاتلوا فى سبيل الله . إذ " قيل: القائل رسول الله ﷺ وقيل : عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى أبو جابر بن عبد الله ." (١)

وسواء أكان القائل هو رسول الله ﷺ أو غيره فقد حقق الحذف والإيجاز والاختصار .

وفصل بين قوله – تعالى – :﴿وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ وبين قوله – تعالى – :﴿تَعَالَوْا﴾ لما بينهما من شبه كمال الاتصال إذ الجملة الأولى أثارت سؤالاً تقديره : ماذا قيل لهم؟ فقيل : تعالوا قاتلوا ، وجاء بكلمة ﴿تَعَالَوْا﴾ اهتماماً بالغرض المنتقل إليه.

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :﴿تَعَالَوْا﴾ إذ شبه هيئة من طلب مجيئه بهيئة من يراد صعوده إلى مكان مرتفع فوق مكانه بجامع تغيير المكان فى كل ، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة

(١)ينظر البحر المحيط ج ٣ ص ٤٢٣ .

التمثيلية ، وهذا التصوير يجعلهم وكأنهم يرتفعون ويعلون على غيرهم من البشر إذا عملوا بموجب هذا الطلب ( القتال أو الدفاع ) وفى هذه الحالة يكونون أقدر بالرفعة والعلو .

وإيثار هذا اللفظ ﴿تَعَالَوْا﴾ دون غيره من الألفاظ المعبرة كـ( أقدموا ) مثلاً " لأن أصله من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعا إلى ما فيه رفعة."(١)

وفصل بين قوله – تعالى – :﴿قَاتِلُوا﴾ وبين قوله – تعالى – :﴿تَعَالَوْا﴾ لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال فالأولى أثارت سؤالاً تقديره : لماذا نجيئ ؟ فقيل : ﴿قَاتِلُوا﴾ .

والمراد من الأمر فى قوله – تعالى – :﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ هو التخيير فالقائل لهذا الأمر كان يريد منهم أن يفعلوا شيئا من أجل الإسلام سواء أكان هذا الشيء قتالاً أو دفاعاً .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى تحقيق وضبط سيد كيلاني ص ٣٤٦ ط دار المعرفة بيروت لبنان – بدون تاريخ.

ومجئ كلمة ﴿قَاتِلُوا﴾ بالمد بصيغة المفاعلة التى تشعر بالمشاركة توحى بأن القائل كان يرجو من المخاطبين تعاونهم ومشاركتهم للمسلمين فى جهادهم .

وأما مجئ كلمة ﴿ ادْفَعُوا﴾ بدون مد يشعر بغيظ القائل وحنقه عليهم وأنه يريد منهم القيام بأية مساعدة ، وهم لم يعبئوا ولم يستجيبوا لذلك الطلب .

ويؤكد هذا المعنى الحروف الجهرية الشديدة فى الكلمة كـ ( الهمزة والدال والعين ) التى تساعد في تصوير شدة غضب القائل وحدته .

وإضافة السبيل إلى الله – تعالى– يوحى بشرف هذا السبيل وفخامته .

وفصل بين جملة ﴿ ادْفَعُوا﴾وبين جملة ﴿قَالُوا﴾ إذ الجملة الأولى أثارت سؤالاً تقديره :

( ماذا قالوا بعدما طُلب منهم القتال أو الدفاع )؟ فقيل : ( قالوا لو نعلم قتالاً ) .

ووجود (لو) فى التعبير ﴿لَوْ نَعْلَمُ ﴾ يشعر بعدم علمهم بالقتال وكأنهم باستعمالهم لهذا الحرف كانوا يريدون أن يخلوا مسؤوليتهم من عدم اتباع المسلمين في هذا اليوم إذ إن ( لو ) تشعر بعزة حدوث الفعل وندرته.

والتعبير بالفعل المضارع ﴿ نَعْلَمُ﴾ وذلك لاستحضار الصورة الماضية وهى صورة معرفتهم القتال .

وتنكير ﴿قِتَالًا﴾ للتعظيم أى قتالاً عظيماً يناسب الدفاع عن الإسلام .

وعبر بضمير الغيبة ﴿هُمْ﴾وذلك يشعر بازدرائهم وتحقيرهم وتمني بعضهم عن ساحة الخطاب كما بعدوا عن ساحة القلب .

ويلاحظ الحذف فى قوله – تعالى – :﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾إذ حذف المضاف والتقدير : ( هم لأهل الكفر أقرب منهم لأهل الإيمان ) وقد حقق هذا الحذف الإيجاز والاختصار وهذا الحذف يكشف عن رغبة الله – تعالى– فى الانتهاء من الحديث عن هؤلاء بسرعة حتى لو تحقق هذا عن طريق حذف لفظيتين فقط .

وواضح ما بين قوله – تعالى –: { الكفر } وقوله – تعالى –: ( الإيمان ) من طباق ، وهذا الطباق قد وضع كلاً من الإيمان والكفر فى قالبه المناسب إذ جعلنا نرى الكفر فى صورة قبيحة منفرة تودي بصاحبها إلى مهالك الدنيا والآخرة ، وجعلنا نرى الإيمان فى صورة طيبة مرغبة تنقذ صاحبها من حال الضياع وتوصله إلى خيرى الدنيا والآخرة .

وفصل جملة ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال إذ إن الجملة الأولى أثارت سؤالاً تقديره كيف كانوا إلى الكفر أقرب؟ فقيل ( يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ).

ويتضح التصوير فى قوله – تعالى – :﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ حيث أطلق المحل ( أفواه ) وأراد الحال ( الألسنة ) على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية.

وهذا المجاز قد أثار الخيال ورسم صورة بشعة لأفواههم إذ جعلنا نشعر أن ألسنتهم قد أصبحت أفواها ذات أسنان وألسنة وكأنهم أصبح لهم فم داخل فم من كثرة ما كذبوا وما قالوا بغير الحق وفي هذا من القبح والبشاعة ما لا يخفى .

وقيَّد الفعل ( يقولون ) بالجار والمجرور ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وذلك للإشعار بأن " هذا القول لا يتجاوز الأفواه وليس ترجمة عما فى القلوب ." (١)

وإضافة ( قلوب ) إلى ضميرهم توحى بحقارة هذه القلوب وخبثها إذ تشتمل على أفكار قبيحة خبيثة لا يفصحون بها وأقاويل كاذبة ومعتقدات ضالة كما أنها قلوب لأناس منافقين قربوا من الكفر .

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى أثرها فى الدراسات البلاغية د . محمد محمد أبو موسى ص٧٢٣ ط مكتبة وهبة ت– ط ١٤٠٨ – ١٩٨٨ م .

والتعريف بلفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ لإظهار العظمة والجلال الإلهى إذ إن الله هو الذى يتفرد بالقدرة دون غيره.

والتعبير بصيغة التفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾ يشعر بعظمة الله – تعالى– وكثرته وضآلة علمهم وقلته بجانب علمه سبحانه و– تعالى –.

وإيثار التعبير بالفعل المضارع فى قوله – تعالى – :﴿بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ وذلك لاستحضار الصورة الماضية من كتمانهم ما بداخلهم فالتعبير بهذا الفعل يجعل القارئ لهذه الآية أو السامع يتذكر موقف هؤلاء وهم على درجة كبيرة من النفاق تجعلهم لا يصرحون بما في داخلهم .

وبين قوله – تعالى – :﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ و قوله – تعالى – ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ طباق خفي إذ إن إعلان الكلام لازم عن القول بالأفواه والإعلان ضد الكتمان، وهذا الطباق قد أوضح المعنى وأبرزه وهو علم الله الشامل لكل شيء الخفى منه والظاهر وأنه هو القادر على الجمع بين الضدين معاً.

وتأتى الآية التى يذكرنا الله – تعالى– فيها بالذين قالوا عن إخوانهم لو أطاعونا بأن لو لم يقاتلوا فى هذه الغزوة ما قتلوا فيرد الله عليهم فى الآية نفسها ويقول لهم إن كنتم صادقين فى دعواكم أن التحايل والتحرز ينجى من الموت فجدوا أنتم فى دفعه ولن تجدوا إلى ذلك سبيلاً بل مهما اتخذتم من حذر لابد أن يتعلق بكم بعض أسباب الموت .

يقول – تعالى– ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾.

ويلاحظ الحذف فى قوله – تعالى – :﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾(١) إذ حذف المسند إليه والتقدير : ( هم الذين ) وقد كان هذا الحذف لضيق المقام عن ذكره إذ من متطلبات السياق فى هذه الآية الانتقال بسرعة إلى المعنى الذى تفيده جملة الصلة وهو قولهم بنفي القتل عن إخوانهم إذا أطاعوهم .

والتعريف بالموصولية فى قوله – تعالى – :َ﴿ الَّذِينَ ﴾ يشعر بحقارة هؤلاء المنافقين وقلة شأنهم إذ هم الذين يحملون المعتقدات الخبيثة ويقلون الأقوال القبيحة .

والمراد بالقائل في قوله – تعالى – :﴿الَّذِينَ قَالُوا ﴾" عبد الله بن أُبي وأصحابه وقال الأصم هنا لا يجوز لأن عبد الله بن أُبى خرج مع الرسول ﷺ

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٤٣٨ دار الكتاب العربى ت ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .

فى الجهاد يوم أحد ، وهذا القول فهو واقع فيمن قد تخلف لأنه قال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا ﴾أى فى القعود ما قتلوا . " (١)

وإضافة إخوان إلى ضميرهم فى قوله – تعالى – (إخوانهم ) وذلك للإشعار بالاختصاص فهؤلاء الإخوان يختصون بهم وأنهم أقرباء من القلب.

والمراد بالإخوة : الأخوة فى النسب أو الأخوة بسبب المشاركة فى الدار أو فى عداوة الرسول ﷺ أو فى عبادة الأوثان .

والجملة الحالية ﴿وَقَعَدُوا﴾ تكشف عن رغبتهم الأكيدة الملحة فى القعود عن القتال وأمنيتهم الدفينة فى التخلف عن المسلمين ،وكأن لفظ القعود الذى ورد فى الآية يلمح إلماحاً إلى ما كانوا يهدفونه من القعود .

وأما التعبير بـ ( لو ) فيومئ إلى اعترافهم باستحالة تحقق هذه الأمنية إذ كان كلامهم هذا بعد الغزوة وبعد قتل إخوانهم فى تلك الغزوة وكأنهم يتحسرون ويندمون على ما حدث ويندبون إخوانهم الذين قُتلوا فى تلك الغزوة مما يؤكد اقترابهم من الكفر أو حتى وصفهم بالنفاق .

ويلاحظ حذف متعلق الفعل فى قوله – تعالى – :﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ فيما أمرناهم به ، وهذا الحذف يشعر بعدم رغبة هؤلاء المنافقين فى الكلام وكأن

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٨٧ ط الثالثة دار إحياء التراث العربى – بيروت .

صدمتهم فى إخوانهم أثرت عليهم وأخرستهم وجعلتهم يعبرون عن ندمهم هذا وحسرتهم بأقصر العبارات والألفاظ ، ويلاحظ حذف المسند إليه فى قوله – تعالى – :﴿مَا قُتِلُوا ﴾ وذلك للإيجاز والاختصار لأن المسند إليه هنا متعدد فلو ذكر لقيل ما قتلهم فلان وفلان وفلان . . الخ الذين قتلوا إخوانهم وهذا يتنافى والإيجاز البليغ .

قرأ الجمهور ( قُتلوا ) بالتخفيف وقرأ هشام عن ابن عامر : ( قتلوا) من التقتيل .

المراد من القتل على القراءة الأولى القتل بدون تعذيب أو تمثيل بالجثة وهذه القراءة تناسب فريقاً منهم يرفض ويعترض على القتل لمجرد القتل .

والقتل في القراءة الثانية قتل فيه تعذيب وتمثيل بالجثث فالقراءة الثانية تناسب فريقا آخر قد حزن على إخوانه الذين قتلوا بدون رحمة أو رأفة من الأعداء إذ كان فى قتلهم قطع أعضائهم أو إخراج أحشائهم وهتك حرمة أجسادهم .

والمراد من الأمر فى قوله – تعالى – :﴿قُلْ﴾ التوجيه والتعليم فالله – تعالى– يعلم رسوله الكريم كيف يرد على هؤلاء المنافقين .

وأما المراد من الأمر فى قوله – تعالى – :﴿فَادْرَءُوا﴾ التعجيز وهذا يشعر بضآلتهم وحقارتهم عند الله – تعالى– وأنهم لا يساوون شيئا .

" وقد كان هذا القول من الله – تعالى– ورسوله ﷺ تبكيتاً وإظهاراً لكذبهم . " (١) واستهزاءً بهم ويؤكد هذا المعنى التعبير عنهم بصيغة جمع القلة ( أنفس ) الذي يشعر بوضاعتهم ودونيتهم وقلة شأنهم .

وآثر التعبير القرآنى { إن } بدلاً من ( إذا ) فى قوله – تعالى – :﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾وذلك لأن صدقهم من الأمور التى يشك فى وقوعها أو يُندر حصولها أصلاً وهذا شأن المنافقين.

والتعبير بصيغة اسم الفاعل جمعاً ﴿صَادِقِينَ﴾ يوحى بدوام وثبوت تلك الصفة لمن اتصف بها ( الصدق ) وأنهم قد عرفوا بها إذ تصبح هذه الصفة ملازمة لهم ، وهم غير صادقين أصلاً وطالما شك فى وجود تلك الصفة عندهم بدليل وجود إن فى التعبير لا تصدق عليهم هذه التسمية (الصادقين) ويكون الله – تعالى– قد جاء بهذا التعبير تهكماً بهم وسخرية منهم وتنزيلاً لعدم الصدق منزلة الصدق .

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٥ .

# المبحث الخامس
# جزاء الشهداء

وتأتى الآية الكريمة التى ينهى الله – تعالى– عباده فيها عن الظن أو الاعتقاد بأن الذين استشهدوا هم موتى مثل كل الموتى إذ إنهم لم يموتوا بل يكونوا أحياء فى معية الله –عز وجل–ويستمر رزقهم وتنعمهم عنده –تعالى–.

يقول – تعالى –: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾

والمراد من النهى فى قوله – تعالى – :﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾التحذير والزجر عن الظن أو الاعتقاد بأن الشهداء سيكونون موتى مثل الموتى الآخرين ، وهذا يوحى برأفة الله – عز وجل – واهتمامه بالمسلمين إذ ينصحهم ويرشدهم إلى ما فيه خير لدينهم ودنياهم .

" وقرئ الفعل تحسب بالتاء وقرئ بالياء " (١) ، وفى هاتين القراءتين إيجاز .

فقراءة التاء تجعل الضمير لكل أحد يظن ذلك الظن ومنهم الذين كانوا يتحسرون على إخوانهم الذين قتلوا فى تلك الغزوة .

وقراءة الياء تجعل الضمير للرسول أو للذى يحسب أو يعتقد أو يظن ويمكن أن يعود الضمير على الذين تحسروا على إخوانهم .

---

(١) ينظر تفسير الفخر الرازى ج٩ ص ٩٤ .

فقراءة الفعل بالتاء مرة وبالياء مرة أخرى أغنى عن أن يكون الكلام هكذا :

ولا تحسبن أنت أيها الرسول ﷺولا أنتم يامن تظنون هذا الظن، ولا يحسبن الذين استشهدوا أو أى حاسب يحسب ذلك .

فالقراءتان معاً تحققان المراد وهو التحذير المطلق لكل أحد من الاعتقاد الخاطئ وهو موت الشهداء ومساواتهم بالموتى أو القتلى الآخرين.

فعود الضمير على الرسول ﷺ يوحى باهتمام خاص من الله – عز وجل – لرسوله الكريم إذ يريد أن يحميه من هذا الاعتقاد الخاطئ مما يشعر بأهمية الرسول ﷺ وقيمته عند الله – تعالى –.

كما يشعر برأفته – تعالى– بالمسلمين إذ بإنقاذه من هذا الاعتقاد تنقذ الأمة جميعاً .

وإذا كان الضمير يعود إلى الذين تحسروا على إخوانهم واعتقدوا بأن إخوانهم لو قعدوا ولم يذهبوا إلى القتال ما قتلوا ففيه تغييب لهؤلاء وانصراف عن خطابهم وكأن الله – تعالى– يريد أن يحرمهم من شرف مخاطبته إياهم فتحدث عنهم وكأنه يتحدث عن غيرهم .

والتعريف بالموصولية فى قوله – تعالى – :﴿الَّذِينَ قُتِلُوا ﴾ وذلك تنبيهاً للمخاطب على خطئه فالتعبير بالموصول وصلته لبيان خطأ المخاطب، ولو عبر الله – تعالى– بغير الموصول فقال ولا تحسبن فلانا وفلانا وفلانا... الخ الشهداء المقتولين لما كان فى الكلام ما يفيد تنبيههم إلى هذا الخطأ .

**كما أن اسم الموصول يطوى تحته أسماء كثيرة استشهدوا لا يتسع المقام لذكرها وبهذا يكون وجود اسم الموصول قد حقق الإيجاز الذى هو صمام البلاغة ،**

**والمراد من الشهداء المعبر عنهم باسم الموصول ( الذين ) فى هذه الآية " شهداء أحد وكانوا سبعين رَجُلاً . " (١)**

**" وقرئ الفعل قتلوا بالتخفيف وقرأ بالتشديد " (٢) ، فقراءة التخفيف توحى بمجرد القتل وأما قراءة التشديد فتوحى بشدة القتل وكثرته وقد حققت هذه القراءة الإيجاز إذ لو لم تكن هذه القراءة لقيل ولتحسبن الذين قتلوا وقتِّلوا .**

**وتنكير ﴿ أَمْوَاتًا ﴾ يوحى بالهوان والضعف وقلة الحيلة فالذى تزهق روحه يصبح جسده من الهوان والضعف بمكان ويصبح عاجزاً معدوم الحيلة والحياة ، فالتنكير يشيع روح الفناء والتلاشى والعدم .**

**وأما تنكير ﴿أَحْيَاءٌ﴾ فيشيع الإحساس بالقوة والنشاط والحيوية كما يشعر هذا التنكير بعظمة هذه الحياة وفخامتها وأنها حياة خاصة فخمة لا يقادر قدرها ولا يدرك كنهها إذ هى الحياة الممنوحة من الله جزاءً لاستشهادهم .**

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) السابق نفسه .

ويلاحظ الطباق بين ( أموات – أحياء ) وقد أبرزا المعنى وأوضحاه وهو الفرق الكبير والهوة الشديدة بين الحالين فرق بين الحياة والموت وفرق بين الوجود والعدم .

ويلاحظ حذف المسند إليه فى قوله – تعالى – :﴿بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾والتقدير بل هم أحياء وقد كان هذا الحذف للمسارعة إلى المطلوب وهو الإخبار بجزاء هؤلاء الشهداء وحالهم من الحياة والنعيم والرغد والرزق الدائم من عند الله .

كما يلاحظ حذف المضاف من قوله – تعالى – :﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ والتقدير: " عند كرامة ربهم وذلك لأن عند تقتضى القرب . " (١)

وهذا الحذف يشعر بقرب هؤلاء الشهداء من الله – تعالى– وارتفاع منزلتهم وأنهم ينزلون منزلة من الله – تعالى– عظيمة فخمة .

وإضافة رب إلى ضمير الشهداء فى قوله – تعالى – :﴿رَبِّهِمْ﴾ تكريماً وتشريفاً لهؤلاء الشهداء وكأنه – عز وجل – أصبح ربهم لا رب سواهم .

والتعبير بالفعل المضارع ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ يوحى باستمرار هذا الرزق وتجدده فى كل يوم وساعة لهم وأنه رزق دائم لا ينقطع أبداً .

والآية التالية يستكمل الله – تعالى– فيها وصف الشهداء فيخبرنا الله – عز وجل – بأن حالهم فى الجنة هو الفرح والسرور والسعادة ويبشرهم الله –

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٤٢٩ .

عز وجل – بإلحاق أحبائهم بهم الذين كانوا فى الغزوة ولم يستشهدوا معهم ويخبرهم بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

يقول – تعالى –: ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾.

وتنكير ﴿فَرِحِينَ﴾مع جمعه جمع مذكر سالم يوحى بكثرة الفرح والسرور الذى سيكون فيه الشهداء وعظمته وأن السعادة التى يرزقهم الله – تعالى – بها هى السعادة الغامرة التى ينغمسون فيها وكأن السعادة ستصبح ثوباً يلفهم ويحيط بهم من كل جانب، كما يشعر هذا التعبير بأن الشهداء سيكونون جماعات فالشهيد لا يكون وحده بل يكون في صحبته من كانوا على شاكلته من الشهادة والتقى والصلاح ولا يخفى ما في هذا من الإيناس ، إذ الوحدة تشعر صاحبها بالوحشة والقلق .

وحروف الهمس فى الكلمة كالفاء والحاء تؤكد هذا المعنى إذ توحى بالهدوء وراحة البال والسكينة والطمأنينة وهذا لا يتم إلا إذا كان نتيجة للفرح والسعادة والصحبة الطيبة .

والمد فى قوله – تعالى – :﴿ آَتَاهُمُ ﴾يشعر بكثرة العطاء الذى أعطاه لهم الله – تعالى– إذ إن قوله – تعالى – :﴿ آَتَاهُمُ ﴾ كناية عن " شرف

الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله – عز وجل – والتمتع بالنعيم المخلد العاجل ". (١)

وهذه الكناية تصور فضل الله وكرمه فى أوسع مظاهره واهتمامه وتشعر بعلو منزلة الشهداء عند الله – تعالى – إذ يعطيهم الخير الكثير .

والتعبير بالفعل الماضى ﴿ آَتَاهُمُ ﴾ بدلاً من المضارع ﴿ سيأتيهم ﴾وذلك للإشعار بأن هذا الإيتاء واقع محقق بمشيئة الله وأنه لا محالة واقع .

وآثر القرآن الكريم التعبير بلفظ ﴿ آَتَاهُمُ ﴾ بدلاً من أعطاهم مع أن الإتيان هو الإعطاء وذلك " لأن ﴿ الإتيان ﴾ أقوى من الإعطاء فى إثبات مفعوله ، لأن الإعطاء له مطاوع يقال : أعطانى فعطوت ولا يقال : فى ﴿ الإتيان ﴾ أتانى فأتيت ، وإنما يقال: آتانى فأخذته .

والفعل الذى له مطاوع أضعف فى إثبات مفعوله من الذى لا مطاوع له . . فالإيتاء إذا أقوى من الإعطاء . (٢)

والتعريف بالعلمية فى قوله – تعالى – :﴿ آَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ يدخل الأنس والفرح فى قلوب المجاهدين الذين يتمنون الشهادة ويرسم البسمة على وجوه من كان عنده شهيد ويشعرهم بالبهجة التى يشعر بها الشهداء عند الله وكأنه – تعالى– جاء بلفظ الجلالة طمأنينةً لهم وجبراً لخاطرهم .

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشىج ٤ ص ٨٥ . ط دار الجيل .

والتعبير بحرف الجر ( من ) يوحى بأن ما أوتى للشهداء مع أنه كثير عظيم إلا أنه لا يمثل إلا بعضاً من فضل الله مما يوحى بسعة فضله – تعالى– وكثرته .

وإضافة ( فضل ) إلى ضمير الله سبحانه و– تعالى– يوحى بعظم هذا الفضل وكثرته وأنه لا يعادله فضل أو يشابهه .

والتعبير بالفعل المضارع ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾لاستحضار صورة البشرى وهى تملأ وجوه الشهداء الذين ينتظرون أحباءهم الذين كانوا معهم فى المعركة ، كما يشعر هذا التعبير بتجدد هذا الفعل ( يستبشرون ) واستمراره .

ووجود حروف الهمس فى الكلمة تناسب الطمأنينة والوضوء الذي كانوا يتمتعون به مما يؤكد ثقتهم الشديدة فى ربهم سبحانه و– تعالى –.

والتعريف بالموصولية فى قوله – تعالى – ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يوحى بعظمة وفخامة هؤلاء المعبر عنهم إذ هم الذين كانوا يسعون إلى الشهادة ولم تتحقق لهم تلك الأمنية ولا شك أن هؤلاء من العظمة والفخامة بمكان .

" وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد فى الجهاد والرغبة فى نيل منازل الشهداء وإصابة فضلهم وإخماد لحال من يرى نفسه فى خير فيتمنى مثله لإخوانه فى الله وبشرى للمؤمنين بالفوز فى المآب . " (١)

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٤٠ .

وأما تنكير ( خوفا ) فيشعر بنفي العموم أى أنه لا يخاف عليهم أصلاً لا من قريب ولا من بعيد مما يوحى بتلاشى الخوف عن هؤلاء وانعدامه مما يؤكد المعنى السابق من الطمأنينة والسكينة .

والتعبير بالفعل المضارع ﴿يَحْزَنُونَ﴾يوحى باستمرار ودوام انتفاء الحزن إذ إنهم لا يحزنون أبداً ، فالمراد : " بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهم كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعاً فإن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام . " (١)

وفصل بين جملة ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وبين ما قبلها وذلك لما بينهما من كمال الاتصال إذ الجملة الثانية بمنزلة بدل الاشتمال ، وقد أشعر الفعل " بأن استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم . " (٢)

ويلاحظ أن الله – تعالى– " قد جمع للشهداء فى هذه الآية بين المسرة بأنفسهم والمسرة بمن بقى من إخوانهم لأن فى بقائهم نكاية لأعدائهم وهم مع حصول فضل الشهادة لهم على أيدى الأعداء يتمنون هلاك أعدائهم لأن فى هلاكهم تحقيق أمنية أخرى وهى نصرة الدين " (٣)

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) التحرير والتنوير ج ٣ ص ١٦٦ .

ويلاحظ الطباق بين قوله – تعالى – :﴿فَرِحِينَ – يَحْزَنُونَ﴾وقد أبرز هذا الطباق المعنى وأوضحه وهو حال الشهداء من الفرح والسرور وأن سعادتهم دائمة لا تنقطع كما أن الحزن لا يتطرق إليهم أبدا .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنه ليس هناك تعارض بين فرحين وبين ( إن الله لا يحب الفرحين ) "فى قصة قارون لأن ذاك بالملاذ الدنيوية وهذا بالملاذ الأخروية .

ولذلك جاء ( قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ) وجاء ( وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ) " (١)

والآية التالية يخبرنا الله – تعالى– فيها باستبشار الشهداء وأنهم فيها يسعدون ويتمتعون بنعيم الله وفضله الواسع الفياض ثم يخبرنا الله – تعالى– بأنه لا يحرم المؤمنين من فضله ولا يضيعه عليهم .

يقول – تعالى –: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾.

" وإنما أعاد لفظ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، والاستبشار الثانى كان بأحوال أنفسهم خاصة .

فإن قيل : أليس أنه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار ؟ قلنا الجواب من وجهين الأول : أن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم

---

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٤٣٠ .

التكرار ، والثانى : لعل المراد حصول الفرح بما حصل فى الحال وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم فى الآخرة."(١)

وقد كان لأبى السعود رأي آخر فى إعادة الاستبشار إذ قال " كرر بيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها هى ثواب أعمالهم . " (٢)

وتنكير ( نعمة ) يشعر بالكثرة والعظمة والفخامة ، فالنعمة التى استبشر بها هؤلاء الشهداء هى نعمة لا يحيط بها الوصف إذ إنها نعمة من قبل الله – عز وجل – ولا أفخم ولا أعظم من هذا .

وكذا تنكير ( فضل ) يوحى بالكثرة والسعة ففضل الله كثير عظيم وخاصة الفضل الذى استبشر به هؤلاء الشهداء .

قرأ الكسائى ( وإن الله ) بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الباقون بفتحها على معنى : وبأن الله والتقدير : يستبشرون بنعمة من الله وفضل وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

والقراءة الأولى أتم وأكمل لأن على هذه القراءة يكون الاستبشار بفضل الله وبرحمته فقط ، وعلى القراءة الثانية يكون الاستبشار بالفضل والرحمة

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٩٦ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٧ .

وطلب الأجر ، ولاشك أن المقام الأول أكمل لأن كون العبد مشتغلاً بطلب الله أتم من اشتغاله بطلب أجر عمله(١)

وفي التعبير بلفظ الجلالة فى قوله – تعالى – :﴿وأن الله ﴾ ما يشعر بالأنس والفرح الذى يملأ قلوبهم والبشرى التى تعمهم .

ونفى ضياع أجر المؤمنين عن الله سبحانه و– تعالى– يوحى بعدل الله – تعالى– بل وفضله ورحمته بالمؤمنين وحبه – تعالى– لهم .

" والمراد بالمؤمنين إما الشهداء والتعبير عنهم بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على إيمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة فى الدين . "(٢)

ويلاحظ التصوير فى قوله – تعالى – :﴿ أجر ﴾ إذ شبه الجزاء بالأجر بجامع ضمان الحصول عليه واستحقاقه ثم حذف المشبه واستعير المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وهذه الاستعارة صورت المعنى فى النفس بإيجاز بليغ وهذا التصوير يغرى الإنسان بزيادة العمل الصالح والإخلاص فيه وإتقانه لنيل الدرجات العليا والأجر العظيم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٩٦ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٧ .

وتأتى الآية التى يوضح فيها الله – تعالى– المراد بالمؤمنين إذ يبين أنهم هم الذين أطاعوه – تعالى– ونفذوا أوامر نبيه الكريم ﷺ وانتهوا بنواهيه وخاصة بعدما أصابهم القرح كما وضح –عز وجل – أن للذين يحسنون منهم ويتقون طاعته والتزموا بتقواه أجر عظيم .

يقول – تعالى–: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ﴾.

وسبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء قدموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك النبى ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان أصابهم القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فنزلت . (١)

وفصل بين قوله – تعالى – :﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا ﴾ وبين ما قبلها لأن ما قبلها أثارت سؤالاً تقديره : من هم المؤمنون ؟ فقيل الذين استجابوا . . الخ .

فالفصل لشبه كمال الاتصال وتتمثل بلاغة هذا الفصل فى الإيجاز الذى نشأ عن حذف السؤال المقدر .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

ويلاحظ الحذف مرة أخرى فى قوله – تعالى – :﴿ الَّذِينَ ﴾ إذ حذف المسند إليه والتقدير : هم الذين وقد حقق هذا الحذف الإيجاز، والتعريف بالموصولية فى قوله – تعالى – :﴿ الَّذِينَ ﴾ وذلك للإشعار بعظمة المعبر عنهم وفخامتهم وأنهم ذو منزلة عالية مرتفعة وأصحاب مكانة خاصة عند الله – عز وجل –.

والسين والتاء فى قوله – تعالى – :﴿اسْتَجَابُوا﴾ توحى بسعيهم الدائم فى استرضاء الله –تعالى– وأنهم يدأبون فى طلب إجابتهم لله – عز وجل – وكأنهم يبذلون قصارى جهدهم فى البحث عما يرضى الله – تعالى – ويقومون بفعله إذ إن السين والتاء لا تعطى الشعور بمجرد الإجابة فقط وإلا قيل الذين أجابوا ربهم .

ويؤكد هذا المعنى التعبير بالفعل الماضى الذى يشعر بتحقق الوقوع فاستجابتهم لله –عز وجل – قد وقعت بالفعل منهم دون تردد .

وقدم لفظ الجلالة للإشعار بعظمة الله – تعالى – فى نفوس المؤمنين كما أن لفظ الجلالة فى الآية يشيع الجلال الإلهى والرهبة والوحشة فى نفوس كل من لم يستجب لأوامر الله ورسوله ، وفى المقابل يدخل الأنس والطمأنينة فى قلوب المؤمنين المستجيبين لأمر الله – عز وجل –.

والتعبير عن النبى ﷺ بلفظ الرسول ﷺعطفاً على لفظ الجلالة تكريماً وتشريفاً له .

ويلاحظ القصر فى قوله – تعالى – :﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ إذ قصر عظمة الأجر على الذين أحسنوا واتقوا قصراً حقيقياً تحقيقاً

طريقه التقديم ، وهذا القصر يشعر بأن الأجر العظيم والعطاء الجزيل لا يتعدى هؤلاء المؤمنين ولا يجاوزهم إلى غيرهم وكأن هذا الجزاء قد قصر وأوقف عليهم مما يوحى بمنزلة هؤلاء العالية ومكانتهم السامية .

وتنكير ﴿أَجْرٌ﴾ يشعر بعظمة هذا الأجر وكثرته وأنه أجر قد بلغ من الكثرة والعظمة مبلغاً كبيراً بحيث لا يستحقه إلا المؤمنون المحسنون المتقون ، وعاون على الإشعار بهذا المعنى وصف الأجر بالعظيم .

ووصل جملة ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ بجملة ﴿ أَحْسَنُوا ﴾ لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما فى الخبرية لفظاً ومعنى ، كما أن كلا منهما وصف من أوصاف المؤمنين والذين بهما يستحقون الأجر العظيم .

"والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون ومتقون . " (١)

هذه هي كل الآيات التي تحدثت في ما أعلم عن غزوة أُحُد بما فيها من متعة وروعة وجمال .

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٤٤٨ .

# الخاتمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن تبيانا لكل شئ فكان معجزة خالدة على مر الأزمان ،والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ .

وبعد :

فقد عايشت هذا الروض المزهر ، وارتشفت من ذاك المنهل العذب الفياض، تعايشت معه ليالى وأياما ، وشهورا طوالا ، وبذلت جهدا ليس باليسير، وانتهيت منه بعد فترة ليست بالقصيرة اطلعت فيها على عدد من كتب البلاغة والتفسير ، والإعجاز القرآنى ، واللغة قديمها وحديثها ، واتضح لى كما اتضح لكثير من الباحثين من قبلى أن بلاغة القرآن الكريم صرح عال ، ومدى بعيد لا ترقى إليها بلاغة البشر ، وأن أسلوبه معجز له قدرة كبيرة على التأثير فى النفس بما فيه من فصاحة وإعجاز وقوة وجزالة بينما تتفاوت طبقات كلام البشر ، فقد قسموا كلامهم إلى أقسام متباينة ومتفاوتة فى درجات الحسن والبلاغة ، فمنها البليغ الرصين ، ومنها القريب السهل ، ومنها ما هو مرتبة وسطى بين الاثنين ، ولكن بلاغة القرآن الكريم قد حازت من كل ذلك نصيبها وقدرها فيها جميع أنواع الكلام وهذه فضيلة اختص بها القرآن الكريم دون غيره من سائر أنواع الكلام ، فالحفاظ على القرآن الكريم مسئولية كل مسلم ،إذ إن العربية تستمد روافدها منه ، وتستقى منه ما تحتويه فى طياتها من الأسلوب والعناصر الجميلة .

كما تبين لي أنه ما من كلمة قرآنية وردت فى الكتاب المُنزَّل المجيد إلا اجتمع لتوضيحها جميع العلماء الإجلاء من بلاغيين ولغويين

وأصوليين ، ومع هذا تبقى الكلمة القرآنية منفردة بإعجازها الذى يجتذب جميع الباحثين فى كل المجالات .

كما بدا لى أن علم المعانى الذى يعتمد على معرفة علم النحو معرفة دقيقة له دور مهم فى إبراز الإعجاز القرآنى ، وأن الصور البيانية تعتمد على الصورة الحسية الواضحة ، وأن البديع له دور فى تحريك الذهن وشد الانتباه .

وأن هذه العلوم الثلاثة " المعانى ، البيان ، البديع " تتعاون فى إبراز الجمال القرآنى .

كما شعرت من خلال هذا البحث بجمال معنى الإيناس وروعته وعلمت إلى أي مدى أن هذا المعنى معنى عظيما مؤثرا في النفوس وبه يمكن أن تتحول النفس من حالة سيئة إلى حالة طيبة فرحة .

وأما التوصيات التى أوصى بها فى نهاية بحثي فهي تأتي على النحو التالي :

أولا : يجب تحرى الدقة فى أثناء القيام بالأشياء التالية :

التعرف على المراد من الآية بل الكلمة بل الحرف .

استخراج الأسرار البلاغية والمعاني الجمالية .

ثانيا : عدم التكلف فى استخراج السر البلاغى فالقرآن لا يحتاج إلى هذا التكلف إذ إنه غنى بألفاظه الموجزة ومعانيه المعجزة .

ثالثا : يجب على كل باحث دراسة القواعد النحوية قبل تناول القرآن من الناحية البلاغية ، حيث إن النظم إنما هـ توخِّى معانى النحو .

رابعا : الاهتمام بتراثنا القديم وتوجيه الأنظار إليه بالبحث والنقد والتحليل.

خامسا : الدعوة إلى الإكثار من الأبحاث البلاغية فى القرآن الكريم فإنه لا يمل ولا يقتل بحثا.

فهذا جهد المقل ، وقد بذلت فيه ما أمرنى الله به من طاقـة ورزقنى من فهم، فإن كنت قــد وفقت فبفضل من الله ﷻ ، وإن كانت الأخرى فحسبى جزاء المجتهد، وأنى بذلت ما فى وسعى ، والله أسأل أن يتجاوز عن ما فيه من تقصير ونقص ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينتفع به طلاب العلم والدارسين .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله وبارك على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

# فهرس الآيات القرآنية

| اسم السورة | الآية | رقم الآية |
|---|---|---|
| آل عمران | وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ | ١٢١ |
| آل عمران | إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ | ١٢٢ |
| آل عمران | وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ | ١٢٣ |
| آل عمران | إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ | ١٢٤ |
| آل عمران | بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا | ١٢٥ |
| آل عمران | وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى | ١٢٦ |
| آل عمران | سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ | ١٥١ |
| آل عمران | وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ | ١٥٢ |
| آل عمران | إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ | ١٥٣ |
| آل عمران | ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ | ١٥٤ |
| آل عمران | إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ | ١٥٥ |
| آل عمران | يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا | ١٥٦ |
| آل عمران | وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ | ١٥٧ |
| آل عمران | وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ | ١٥٨ |

| | | |
|---|---|---|
| آل عمران | فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ | ١٥٩ |
| آل عمران | إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ | ١٦٠ |
| آل عمران | أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ | ١٦٢ |
| آل عمران | هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ | ١٦٣ |
| آل عمران | لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ | ١٦٤ |
| آل عمران | أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ | ١٦٥ |
| آل عمران | وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ | ١٦٦ |
| آل عمران | وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا | ١٦٧ |
| آل عمران | الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ | ١٦٨ |
| آل عمران | وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا | ١٦٩ |
| آل عمران | فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ | ١٧٠ |
| آل عمران | | |
| آل عمران | يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ | ١٧١ |
| آل عمران | الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذْ | ١٧٢ |
| الأنفال | يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً | ١١ |
| الإسراء | قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ | ٨٨ |
| طه | يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ | ١٠٨ |
| الأنبياء | لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا | ٢٢ |
| الأنبياء | وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ | ١٠٧ |
| الحجر | مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ | ٨ |

# فهرس المصادر والمراجع


| رقم المرجع | اسم الكتاب | المؤلف | المحقق | الطبعة وتاريخها |
|---|---|---|---|---|
| ١ | أسرار البلاغة | عبد القاهر الجرجانى | | ط دار المدني بالقاهرة .بدون |
| ٢ | أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية | د.حسن طبل | | ط دار الفكر العربى للطباعة والنشر بدون ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م . |
| ٣ | أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا ( رسالة دكتوراه) | د.عبد الغني سعد بركة ص٥٦ - إشرافأ.د.أحمد إبراهيم موسى – كلية اللغة العربية بالمنصورة | السيد رشيد رضا | ط مطبعة الحسين الإسلامية ، ت . ط ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م |
| ٤ | الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ | د. محمد الأمين الخضرى | | ط ملتزم الطبع والنشر – دار الفكر العربي – الطبعة الأولى ١٩٧٤ م |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ٥ | الإعجاز العددي للقرآن الكريم | د .عبد الرازق نوفل | | |
| ٦ | الإعجاز القرآني في دراسات السابقين دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها | عبد الكريم الخطيب | | |
| ٧ | إعجاز القرآن والبلاغة النبوية | للرافعى | | |
| ٨ | إعجاز القرآن | للباقلاني | | |
| ٩ | البحر المحيط في التفسير | لأبي حيان | | |
| ١٠ | البرهان فى علوم القرآن | للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى | | |

# المصادر والمراجع



| رقم المرجع | اسم الكتاب | المؤلف | المحقق | الطبعة وتاريخها |
|---|---|---|---|---|
| ١١ | البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى أثرها فى الدراسات البلاغية | د.محمد محمد أبو موسى | | ط دار الفكر العربى بدون. |
| ١٢ | البناء الصوتى فى البيان القرآنى | محمد حسن شرشر | | ط دار الطباعة المحمدية / ط ١٤٠٨ هـ |
| ١٣ | تاج العروس | للإمام اللغوى محي الدين الزبيدى | | ط دار المطبعة الخيرية المنشاة بالجمالية مصر، ت.ط ١٣٠٦ هـ . |
| ١٤ | تفسير أبى السعود | أ- د.عبد العظيم المطعنى | | ط ، دار الفكر العربي بدون. |
| ١٥ | التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم | لمحمد الطاهر بن عاشور | | ط الناشر مكتبة وهبة ، ت . ط الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م . |
| ١٦ | تفسير التحرير والتنوير | للإمام الفخر الرازي | | جط الدار التونسية للنشر ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان بدون تاريخ. |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ١٧ | التفسير الكبير | د / محمد محمد أبو موسى | | ط دار إحياء التراث العربى بدون تاريخ<br>ص ٣١٢ مكتبة وهبة<br>الطبعة الثانية |
| ١٨ | دلالات التراكيب دراسة بلاغية | للشيخ عبد القاهر الجرجاني | | ط، المدني بالقاهرة بدون. |
| ١٩ | دلائل الإعجاز | للجوهرى | محمود شاكر | ط . دار العلم للملايين ت . ط<br>الطبعة الثالثة<br>١٤٠١ هـ-١٩٨٤م. |
| ٢٠ | الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية | | | ط دار الجيل بدون. |

# المصادر والمراجع


| رقم المرجع | اسم الكتاب | المؤلف | المحقق | الطبعة وتاريخها |
|---|---|---|---|---|
| ٢١ | الصناعتين | لأبى هلال العسكرى | ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي | دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .<br>ط. دار الشروق . |
| ٢٢ | الفروق اللغوية | لأبي هلال العسكري | | شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر ت.ط١٣٩٦هـ-١٨٩٧٦م – كاشفة.<br>ط. دار الكتاب العربى. |
| ٢٣ | في ظلال القرآن | سيد قطب١ | | ط. ١٩٨٢م . |
| ٢٤ | الملل والنحل | لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني | | ط الرائد العربى – بيروت بدون.<br>ط ، دار الفكر العربي بدون.<br>ج ٢.ص ٣٧٣ ، ٣٧٢ت ٢٠٠٣. |
| ٢٥ | الكشاف | للإمام محمود بن عمر الزمخشرى | تحقيق : محمد السيد كيلاني | بدون |
| ٢٦ | لباب البيان | أ . د/ محمد حسن شرشر | | ط دار الجيل بدون. |
| ٢٧ | لسان العرب | لابن منظور | | س |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ٢٨ | لغة المنافقين فى القرآن | د / عبد الفتاح لاشين | | |
| ٢٩ | المال بين البخل والإسراف فى القرآن الكريم | دراسة بلاغية رسالة دكتوراه. د / سحر مصطفى إبراهيم المعنا إشراف أ.د عبد الفتاح لاشين | تحقيق علي محمد البيجاوي | |
| ٣٠ | معترق القرآن في إعجاز القرآن | للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبيبكر السيوطي | محمود شاكر | |

# المصادر والمراجع


| رقم المرجع | اسم الكتاب | المؤلف | المحقق | الطبعة وتاريخها |
|---|---|---|---|---|
| ٣١ | معاني التراكيب | أ.د عبد الفتاح لاشين | | ط. الدار الجامعية |
| | الملل والنحل | لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني | تحقيق محمد السيد كيلاني | ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر ت.ط١٣٩٦هـ-١٩٧٦م |
| ٣٢ | المفردات فى غريب القرآن | للراغب الأصفهانى | تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى | ط : دار المعرفة- بيروت - لبنان - بدون تاريخ |
| ٣٣ | من الأسرار البيانية فى الكناية | أ.د / حمزة الدمرداش زغلول | | ط. المطبعة الإسلامية الحديثة ، الطبعة الأولى ت . ط ١٤٠٨ هـ |
| ٣٤ | من أسرار التعبير القرآنى (صفاء الكلمة) | د / عبد الفتاح لاشين | | ط دار المريخ للنشر |
| ٣٥ | من أسرار التعبيرالقرآنى ( الفاصلة القرآنية ) | د /عبد الفتاح لاشين | | ط. دار المريخ- الرياض |
| ٣٦ | من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية | د / محمد أمين الخضري | | ت.ط ١٩٩٤ بدون |

# محتويات البحث

| الموضوع |
| --- |
| المقدمة.<br>التمهيد.<br>المبحث الأول :إدخال الإيناس في قلب الرسول والمءمنين بتذكيرهم بنصر الله لهم في بدر .<br>المبحث الثاني :وعد الله للمءمنين بإدخال الرعب والفزع في قلوب الكفار .<br>المبحث الثالثتحذير المءمنين من اعتقادهم مثل معتقدات الكفرة .<br>المبحث الرابع :توجيه النبي بأن يسلك مسلك الرحمة مع المؤمنين .<br>المبحث الخامس :جزاء الشهداء .<br>الخاتمة<br>فهرس الآيات القرآنية<br>فهرس المصادر والمراجع<br>محتويات البحث |